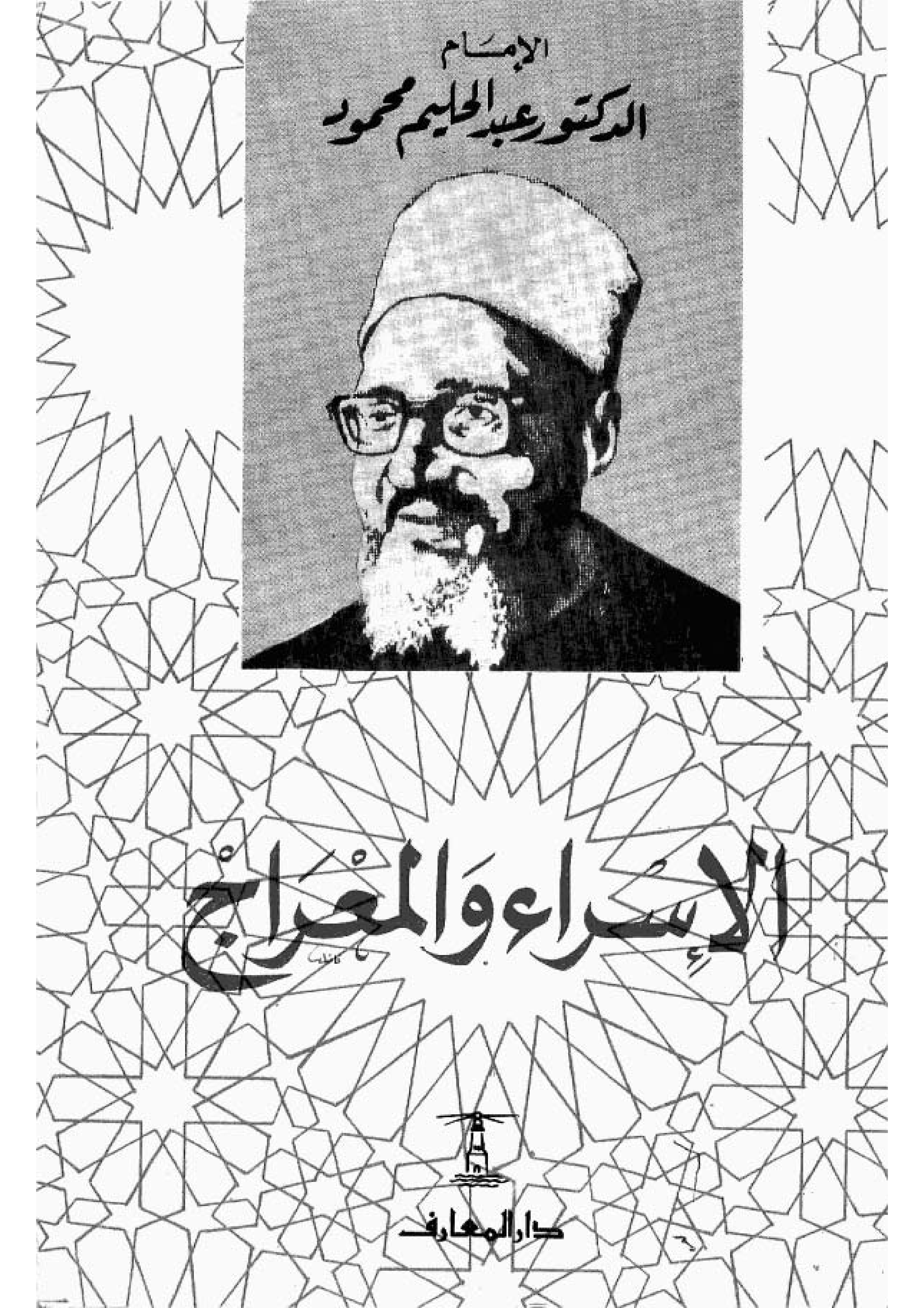

الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود
الإسراء والمعراج
دار المعارف

الإمام
الدكتور عبد الحليم محمود

الإسراء والمعراج

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من أسرى به الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته الكبرى ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين .

« ربنا لا تزغْ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيئْ لنا من أمرنا رشداً » .

مُقدمة

فى مسجد مولانا الحسين رضى الله عنه . فى شهر رجب من سنة ١٣٨٧ هـ ، احتفلت جمهورية مصر العربية عن طريق التليفزيون – فى برنامج نور على نور – بليلة الإسراء والمعراج ، مشاركة بذلك العالم الإسلامى كله ، ومعبرة بهذا الوضع عن الأهمية الكبرى التى لهذه الليلة المباركة .

وقد حضر الحفل كثير من كبار السادة المسئولين فى مختلف الوزارات وفى الأزهر . وقد دعانى المشرفون على البرنامج – مشكورين – للحديث مع من دعى فى تلك الليلة المباركة . وانتهزتها فرصة لأقول رأيى بصراحة ، فى نقطة من هذا الموضوع ، حيث أتيح إعلانها فى أوسع دائرة ممكنة من المستمعين فى المسجد ، ومن المشاهدين على الشاشة .

* * *

لقد كان المعراج مناجاة ، ووحياً ، ورؤية :

أكانت المناجاة مع جبريل عليه السلام ، والوحى من جبريل عليه السلام ، والرؤية لجبريل عليه السلام ؟

أم كانت المناجاة مع الله سبحانه وتعالى ، والوحى من الله تعالى ، والرؤية لله تعالى ؟

لقد قلت فى حديثى :

إن محمداً ﷺ ، وصل إلى أفق لم يعد فيه مكان لجبريل ، وارتقى إلى مستوى من النور لم يكن لجبريل عليه السلام فيه مجال ، فكان محمد ﷺ فى الحضرة الإلٰهية ، دون واسطة .

فناجى محمد عليه الصلاة والسلام ، ربه عز وجل .

وأوحى إليه ربه ما أوحى .

ورأى محمد ربه .

(ما كذب الفؤاد ما رأى) .

واستندت إلى ما جاء فى حديث البخارى :

ثم دنا الجبّار ربّ العزة فتدلى ، فكان منه قاب قوسين أو أدنى .

وقلت : إنّ محمداً ﷺ ، فى هذا الأفق كان وحده وكان جبريل عليه السلام فى أفق أقل ، فكانت المناجاة مع الله .

وكان الوحى من الله .

وكانت الرؤية لله تعالى .

ولم يستغرق حديثى أكثر من ربع ساعة ، قلت فيها — فى لمحات خاطفة — كل ما كنت أريد أن أقول ، فى الموضوع عامة وفى هذه النقطة خاصة .

ثم نزلت من على المنصة ، وكأننى قد تخففت من حمل ، وكأننى قد برئت من مسئولية .

وظننت أن الأمر قد انتهى ، وأننى قد أسمعت ، وأن الكلمة ستأخذ مجراها ، وأن الله سيفتح لها آذاناً ، ويشرح لها صدوراً .

* * *

وما إن انقضى الحفل ، حتى التفّ حولى كثير من ذوى البصائر الرشيدة ، يرجون أن أكتب في الموضوع ، أفصل ما أجملت وأستفيض فيما كان أشبه بلمحات ، وأوضح هذا الذى وقع من أنفسهم موقع الاستحسان والغرابة فى آن واحد ، من أن محمداً ، ﷺ ، وصل إلى أفق كان فى الحضرة الإلهية وحده دون حجاب .

وعددت هذا منهم مجاملة ، قابلتها بمثلها ، وشكرت لهم حسن ظنهم .

ورجوت من الله التوفيق لى ولهم .

ولكن الحديث عن الموضوع استمر ، وكثر طلب الناس هنا وهناك للكتابة فى هذا الموضوع فى صورة أوسع وفى زواياه المتعددة .

وحفزنى هذا إلى العودة إلى الموضوع من جديد .

لقد عدت إلى القرآن الكريم وتفسيره فى مختلف التفاسير ، وخصوصاً تفسير الإمام ابن كثير فى موضوع الإسراء والمعراج ، وكذلك تفسير الإمام الألوسى ، وحاشية الإمام الصاوى ، وإلى صحيح الإمام البخارى ، وشرح الإمام ابن حجر له ، فى مختلف الأمكنة التى تحدث فيها عن الإسراء والمعراج .

وإلى صحيح الإمام مسلم ، وشرح الإمام النووى له .
وإلى الخصائص الكبرى للإمام السيوطى .
وإلى الشفاء للقاضى عياض .
وإلى كتب السيرة . وخصوصاً سيرة ابن هشام وتعليق السهيلى عليها .
ولقد نعمت بفترة من البحث أحمد الله عليها .

* * *

وما من شك فى أننى لم أخترع رأياً ولم أبتدع فكرة ، ولم أجئ بما لم يكن موجوداً ، وكل ما فى الموضوع أننى حاولت فى هذه النقطة – التى كانت مثار سؤال وبحث – أن أبرز ما حاول البعض المرور عليه مروراً عابراً ، وأن أظهر مالم يكن البعض يقف عنده ، وأن أعلن عما كان موجزاً لا يكاد يبين عنه بعض الكاتبين .

لست إذن بدعاً فى الرأى ، ولا مبتدعاً فيه .

* * *

على أن هذه النقطة التى كانت مثار بحث ليست أبرز شىء فى هذا الكتاب ، بل إنها لم تستغرق منه مكاناً كبيراً ، لقد أردت على الخصوص أن أبين أن قصة الإسراء والمعراج إنما تمثل :

١ – منهج حياة فى العقيدة .
٢ – منهج حياة فى الأخلاق .
إنها منهج الحياة الروحية فى حياة المسلم .

وهذه النقطة بالذات هى التى استفضت فيها ، والتى أرجو أن أكون قد صاحبنى فيها التوفيق .

* * *

إن بعض المسلمين يحتفلون بهذا الحادث ، على أنه حدث تاريخى مجيد ، ثم يمرون به على أنه معجزة وقعت لسيدنا محمد ﷺ ، فأظهرت ما له من فضل ، وبيّنت ما له من مكانة ، فإذا ما شرحوها من هذا الجانب : فكأنهم قد أوفوا الموضوع حقه .

وقالوا فيه ما يمكن أن يقال .

ولكن أمر الإسراء والمعراج : أوسع وأعم من أن يكون حدثاً تاريخيًّا ، انقضى وانتهى . وذلك أنه رسم لحياة المسلم ، وفيه من العظات والعبر مالا يكاد يحيط به الإنسان . وسنحاول بتوفيق الله أن نكتب عنه فى هذه الجوانب والزوايا .

والله نرجو أن تمتد لهذا الكتاب الأعين ، وتتفتح له الآذان ، وأن يشرح الله له الصدور ، وأن يهدى له ، وأن يهدى به ، إنه سبحانه قريب مجيب .

وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

الفصل الأول

بين يدى الإسراء والمعراج

سيدنا رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، معجزة التاريخ وهو المنارة التى يهتدى بها الإنسان كلما انبهمت الأمور ، أو ضلت الآراء .

وحياته قبل البعثة كحياته بعدها : عظة وعبرة ، وهداية ومثل أعلى لمن أراد الطريق الأقوم .

إن من يتدبر حياته ﷺ قبل البعثة ، ولا يكون عنده فكرة صحيحة عن النبوة من حيث إنها لا تكتسب اكتساباً ، وإنما توهب من الله تعالى . يكاد يعتقد أنه اقتنص الوحى اقتناصاً واضطره إلى النزول اضطراراً وأنه أبى إلا أن يظفر بما يريد فكان له ما أراد .

بيد أن الصواب هو أن الله اصطفاه ، وفضله بالنبوة والرسالة على العالمين ، عندما حان الموعد الذى حددته العناية الإلهية ، لتتجلى بالهداية عن طريق من اختارته رسولا .

يقول الإمام المراغى رحمه الله . :

« النبوة هبة لا تنال بالكسب ، لكن حكمة الله وعلمه قاضيان بأن تمنح للمستعد لها : القادر على حمايتها » .

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

ومحمد ، ﷺ ، أعد لأن يحمل الرسالة للعالم أجمعه : أحمره وأسوده ، وإنسه وجنه .

وأعد لأن يحمل رسالة أكمل دين .

ولأن يختم به الأنبياء والرسل ، وليكون شمس الهداية وحده إلى أن تنفطر السماء ، وتنكدر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات[1] .

أما هذا الإعداد : فقد حاطه الله بعنايته التامة ، إنه أعده من ناحية أسرته : أعنى من ناحية الوراثة ، وأعده من ناحية فطرته : أعنى طبيعته الشخصية .

أما من ناحية أسرته ، فهذا جده عبد المطلب كان « سمح الطبع ، رضى النفس ، سخى اليد ، حلو العشرة ، عذب الحديث » .

وكان عبد المطلب أيضاً قوى الإيمان ، تملك قلبه ، وتسيطر على نفسه نزعة دينية حادة عنيفة ، ولكنها غامضة ، يحسها ويخضع لها ، ولكنه لا يتبينها ، ولا يستطيع لها فهماً ولا تفسيراً . .[2] .

« كان فتى من فتيان قريش ، ولكنه يمتاز عن بقية فتيان قريش : فيه ذكاؤهم وفطنتهم ، وفيه إباؤهم وعزتهم ، ولكن فيه دعة ، لم تكن مألوفة عندهم ، وفيه شدة من الدين ، قلما كانوا يرضونها أو يبسمون لها .

على أن خصلة أخرى ميزته منهم أشد التمييز ، فلم يكن يصدر فى

---

(١) من مقدمة « حياة محمد » للدكتور هيكل .

(٢) انظر كتاب : « على هامش السيرة » .

حياته – كما كانوا يصدرون – عن الروية والتفكير ، وطول التدبير ، وإنما كانت تدفعه إلى العمل ، والاضطراب فى الحياة قوة خفية ، يحسها ويأبى عليها ، ويغلو فى الإباء ، ولكنه يضطر إلى أن يذعن لها ويصدع بأمرها .

وكانت هذه القوة تصدر إليه أمرها فى أشكال مختلفة : تدفعه إلى العمل حيناً وكأنها إرادته الخاصة ، قد ملكت عليه حسه وشعوره ، فهو لا يستطيع عنها انصرافاً ولا يملك لها خلافاً .

وتتمثل له حيناً آخر شخصاً واضح المخايل ، بيِّن الصوت ، يلم به إذا اشتمله النوم ، فيأمره أن يأتى كذا وكذا من الأمر .

وكان فى هذا الصوت غموض ، وكان فى هذا الصوت إبهام ، وكان فى هذا الصوت جلال مصدره هذا الغموض والإبهام ، وكان الفتى ينكره ، ويرتاع له ، وكان الصوت يغمره ويلح عليه ، وكان الفتى يخاف هذا الصوت ويهواه ، وكان هذا الصوت يتجنب الفتى حتى يؤيسه من نفسه ، ويلم به فيكثر الإلمام . ولم يكن هذا الصوت يقع فى أذن الفتى بألفاظ كالتى تقع فى آذان الناس ، إنما كان يصطنع ألفاظاً خاصة ، غريبة الجرس غريبة المعنى »[1] .

أما والده – عبد الله – فقد كان صورة طبق الأصل من جده ، وكان شعاره :

---

(١) انظر كتاب : «على هامش السيرة» .

« أما الحرام فالممات دونه »

وتقول له فاطمة الخثعمية :

« إنى لأعرف فيك نسك أبيك » .

قبيلته : قريش ، وأسرته : بنو هاشم ، وجده : عبدالمطلب ، سيد قريش إذ ذاك ، ووالده : عبد الله ، فكان هو محمداً .

ولقد اختاره الله للرسالة ، ولكنه ، تعالى : اصطنعه لنفسه ، قبل أن يمنحه النبوة .

أجل ! وهذه الفترة من حياته ، التى سبقت البعثة ، كانت فترة جهاد وصراع روحى هادئ بكل معنى الهدوء ، عنيف أشد العنف ، مستمر لا ينقطع ، فيه الحزن ، وفيه الرجاء، وفيه الكثير من الأمل الوثاب ، الذى يشحذ العزيمة ويسد على اليأس القانط كل منفذ .

إن هذه الفترة من حياته كانت - على حد تعبير الجنيد فى تعريف التصوف - عنوة لا صلح فيها .

كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتوج كل عام جهاده الروحى المتصل بشهر يقضيه فى غار حراء : حيث الخلوة التامة ، وحيث التجرد المطلق ، أو شبه المطلق عن كل ما سوى الله . وهناك فى سجوة الليل ، أو فى رائعة النهار يحاول محمد أن يحطم الحجب ، وأن يخترق المساتير ، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب : فيصل إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين ، أو أدنى ، حتى يشاهد الجمال فى سنائه ، والجلال فى عظمته

وكبريائه وجلاله .

ها هو ذا الرسول ، ﷺ ، يبذل مجهوداً جبّاراً ، لا يكاد الإنسان يتصوره ، فضلا على أن يأتى بمثله .

وها هو ذا يرى الهدف بعيداً لا يكاد الإنسان يفهمه فضلا على أن يصل إليه .

ها هو ذا ، يرى الطريق ، وعثاء صعبة المرتقى . . بيد أن ذلك كله : لم يكن إلا ليزيده عزماً على عزم ، وإرادة على إرادة ، ونشاطاً مضاعفاً .

إنه الجهاد الأكبر ، على حد تعبير الأثر المشهور عن جهاد النفس لتتزكى .

وتمضى السنون بطيئة سريعة فى آن واحد ،وجهاد الرسول ، ﷺ ، لا يفتر حتى أصبح – أو كاد – روحاً خالصة أو قبساً من نور الله وانتهى به الأمر إلى قرب ، يقول عنه الإمام الغزالى إنه :

« أول حال رسول الله ، ﷺ حين أقبل على جبل حراء ، حيث تبتل ، حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه » .

ثم كانت الرسالة ، وكانت المعجزة التى غيرت مجرى التاريخ . (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك

الأكرم . الذى علّم بالقلم . علّم الإنسان ما لم يعلم) [1]

ويقول الدكتور هيكل :

« وجد محمد فيه – فى التحنث – خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت به نفسه ، من تفكير وتأمل ، كما وجد فيه طمأنينة نفسه ، وشفاء شغفه بالوحدة ، يلتمس أثناءها الوسيلة التى يبرح شوقه يشتد إليه ، من نشدان المعرفة واستلهام ما فى الكون من أسبابها .

وكان بأعلى جبل حراء – على فرسخين من شمال مكة – غار ، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث ، فكان يذهب إليه طول شهر رمضان من كل سنة يقيم به ، مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه ممعنا فى التأمل والعبادة ، بعيداً عن ضجة الناس ، وضوضاء الحياة ، ملتمساً الحق ، والحق وحده .

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة ، حتى لقد كان ينسى طعامه ، وينسى كل ما فى الحياة ، لأن هذا الذى يرى فى حياة الناس مما حوله ، ليس حقاً .

« وشارف محمد الأربعين ، وذهب إلى حراء يتحنث ، وقد امتلأت نفسه إيمانا بما رأى فى رؤاه الصادقة ، وقد خلصت نفسه . . وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحقيقة الخالدة : وقد اتجه إلى الله بكل روحه ، أن يهدى قومه بعد أن ضربوا فى

---

(١) سورة العلق ١ / ٥ .

تيهاء الضلال .

وهو فى توجهه هذا يقوم الليل ، يرهف ذهنه وقلبه ، ويطيل الصوم ، وتثور به تأملاته ، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه ، وما يتبين له فى رؤاه .

ولقد طالت به الحال ستة أشهر ، حتى خشى على نفسه عاقبة أمره ، فأسرَّ بمخاوفه إلى خديجة ، وأظهرها على ما يرى ، وأنه يخاف عبث الجن به ، فطمأنته الزوج المخلصة الوفية ، وجعلت تحدثه بأنه الأمين ، وبأن الجن لا يمكن أن تقترب منه .

ولم يدر بخاطرها ولا بخاطره : أن الله يهيئ مصطفاه بهذه الرياضة الروحية إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم : يوم الوحى الأول ، ويهيئه بها إلى البعث والرسالة .

وفيما هو نائم بالغار يوماً ، جاءه الملك وفى يده صحيفة ، فقال له : « اقرأ » [1] .

كانت « اقرأ » مفتتح عهد جديد فى حياة الرسول ﷺ ، فمنذ تلك الآونة لم يترك رسول الله ﷺ الدعوة إلى الله قط ، كان يدعو ليلا ، وكان يدعو نهاراً وكان يدعو فى كل لحظة من لحظاته .

يروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد – وكان جاهلياً أسلم – يقول :

---

(١) من « حياة محمد » للدكتور هيكل .

رأيت رسول الله ، ﷺ ، بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول :
« يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » .

ويدخل فجاجها والناس متقصفون[1] عليه ، فما رأيت أحداً يقول شيئاً ، وهو لايسكت يقول :

«يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا» .

أقام رسول الله ، ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوته ، مستخفياً ، ثم أعلن فى الرابعة ، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافى المواسم كل عام يتبع الحجاج فى منازلهم فى المواسم بعكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ، ولهم الجنة ، فلا يجد قبيلة تنصره ، أو رئيساً يجيبه ، حتى إنه ليسأل على القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول :

« يأيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم ، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً فى الجنة » .

وكانت قريش تقف فى وجه انتشار الدعوة معارضة لها ، ومنكلة بمن يعتنقها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ولكن الدعوة كانت تنتشر شيئاً فشيئاً ، كان يعتنق الإسلام من تحرّر من رق العادة والإلف ، ومن طلب الحق والرشاد ، ومن يصبر على إيذاء قريش ، ومن لاتؤثر فيه دعاية القرشيين .

---

(١) أى مجتمعون عليه .

ونذكر من هذا مثالين :

١ - كان ضماد رجلا من أزد شنوءة تخصص فى معالجة الأمراض العقلية ، كان يعالج بالرق ، ويعالج بالإيحاء ، ويعالج باللمس والدعاء ، وكانت مكانته فى ذلك الزمن مكانة من نسميهم نحن فى العصر الحاضر بالأطباء النفسيين .

ويذكر الإمام مسلم والإمام البيهق قصته :

لقد قدم ضماد مكة ، فسمع سفهاء مكة يقولون :

إن محمداً مجنون .

سمع هذا الخبر هنا وسمعه هناك ، وعلم من الجو الاجتماعى ، ومن الأخبار الكثيرة أهمية محمد القصوى فى هذه المدينة .

وصدق ضماد واهتم بها اهتماماً كبيراً ، وخيل إليه أنه إذا عالجه فقد اكتسب شهرة واكتسب مثوبة ، فقال : أين هذا الرجل ، لعل الله يشفيه على يدى ؟

ثم يقول :

فلقيت محمداً فقلت :

إنى أرقى من هذه الرياح ، وإن الله يشفى على يدى من شاء فهلم .

أى أنه يدعوه إلى أن يستسلم له ليعالجه .

فقال له رسول الله ﷺ :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن

يضلل فلا هادى له ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وتعلقت عينا ضماد برسول الله ، ﷺ ، وأنصتت أذناه وكان كيانه كله مرهفاً مبهوراً .

ثم قال :

والله لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء فما سمعت مثل هذه الكلمات ، ثم طلب من رسول الله ، ﷺ ، إعادتها ، وكان يسمع بجميع أقطاره .

ولم تكفه الإعادة فطلب من جديد أن يسمعها للمرة الثالثة ، ثم قال فور الانتهاء من سماعها :

هلم يدك أبايعك على الإسلام ، فقد بلغت كلماتك هؤلاء قاموس البحر .

ومعنى أنها بلغت قاموس البحر . أنها تغلغلت إلى أعمق أعماق نفسه ، وامتزجت بباطنه امتزاجاً كلياً ، وذلك أن قاموس البحر هو أعمق مكان فيه .

ولم ينس المسلمون فيما بعد ضماد هذا ، فكانوا إذا مرت جيوشهم على قوم ضماد أحسنوا إليهم وقالوا فى مودة :

« إنهم قوم ضماد »

وكثيرا ما كانت تبلغ الدعوة إلى التوحيد قاموس البحر – على حد

تعبير ضماد - فلا يبالى من آمن بإيذاء المشركين .

٢ - وهذا أبو ذر الغفارى بلغت به كلمات التوحيد قاموس البحر ، فأعلنها على الملأ من قريش ، غير مبال بما يناله فى سبيلها من أذى .

ونترك الإمام البخارى يذكر قصة إسلامه :

روى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال :

لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ قال لأخيه :

اركب إلى هذا الوادى فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى يأتيه الخبر من السماء فاسمع من قوله ثم ائتنى .

فانطلق الآخر حتى قدم وسمع من كلامه ثم رجع إلى أبى ذر فقال له :

« رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وسمعت كلاماً ما هو بالشعر » .

فتزود وحمل شنة [١] له فيها ماء حتى قدم مكة ، فأتى المسجد فالتمس رسول الله ، ﷺ ، ولا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل فاضطجع فرآه على ، فعرف أنه غريب .

فلما رآه تبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح .

ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، دخل ذلك اليوم ولا يرى النبى ﷺ ، حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه فمر به علىٌّ فقال :

---

(١) أى قربة .

أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟

فأقامه فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء . حتى إذا كان اليوم الثالث فعاد على على مثل ذلك فأقام معه فقال :

« ألا تحدثنى بالذى أقدمك ؟

قال : إن أعطيتنى عهداً وميثاقاً لترشدنى فعلت .

ففعل فأخبره .

قال :

فإنه حق ، وإنه رسول الله ، ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعنى ، فإن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء ، وإن مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى .

ففعل ، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبى ، ﷺ ، ودخل معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه .

فقال له النبى ﷺ :

« ارجع إلى قومك فأخبرهم ، حتى يأتيك أمرى » .

فقال : والذى بعثك بالحق لأصرخن بها بين ظهرانيهم .

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ثم قام القوم فضربوه حتى اضجعوه .

فأتى العباس فأكب عليه فقال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ، وأنه طريق تجارتكم إلى الشام ؟

فأنقذه منهم . ثم عاد من الغد بمثلها ، فضربوه وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه . . .

كان المشركون كلما رأوا شخصاً يدخل الإسلام زاد نشاطهم ، واتخذوا كل ما يستطيعون من احتياطات حتى لا يدخل أحد بعد فى الإسلام ، وكان من احتياطاتهم :

١ - التنكيل والتعذيب والإرهاب بكل الوسائل .

٢ - الدعاية الكاذبة ضد محمد ﷺ .

٣ - الترغيب حيث لا يستطيعون الإرهاب ، أو حيث لا يكون الإرهاب مجدياً .

ولن نتحدث عن التنكيل والتعذيب الذى أوقعوه على المستضعفين أمثال :

بلال ، وعمار بن ياسر ، وسمية ، وأمثالهم .

ولن نتحدث عن الإرهاب الذى استعملوه مع رسول الله ، ﷺ ، ومع الأسرة الهاشمية ، ولكننا نعرف أنهم استعملوا مع رسول الله ﷺ وسائل الترغيب أيضاً فى أقوى وأخصب صورة .

وبينما كانت وسائل التعذيب بالمستضعفين من المسلمين تجرى على قدم وساق لا فتور فيها ولا هدنة ، إذا بوسائل الترغيب والإغراء تكال إلى رسول الله ﷺ كيلا .

وهذه صورة منها :

كان عتبة بن ربيعة سيداً فى قومه ، قال يوماً ، وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله ، ﷺ ، جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد ، فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ؟

وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ، ﷺ يزيدون ويكثرون .

فقالوا : يا أبا الوليد ، قم إليه فكلمه .

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ، ﷺ فقال :

« يا بن أخى إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة والكمال فى النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منى بعضها .

فقال رسول الله ﷺ :

« قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا بن أخى

إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا : جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ؟

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ؟

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ؟

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ؟

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله ، ﷺ ، يسمع منه ، قال : أفرغت يأبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منى .

قال : أفعل .

قال :

(بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون .

وقالوا قلوبنا فى أكنّةٍ مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون .

قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إلهٌ واحد ، فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون .

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون)[1] .

ثم مضى رسول الله ، ﷺ ، يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة : أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه .

ثم انتهى رسول الله ، ﷺ ، إلى السجدة ، فسجد ، ثم قال :

« قد سمعت يأبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » ؟

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا :

« ما وراءك يأبا الوليد » ؟

قال :

« ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به »

قالوا : « سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه » .

قال : « هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم » .

---

(١) فصلت الآيات : ١ - ٨ .

قد يقول قائل إنه لو عرض على محمد ، ﷺ ، هذا العرض من هيئة تستطيع تنفيذه لقبل .

هذا القول ينقضه : أن عتبة كان مفوضاً من زعماء قريش ، وينقضه أيضاً الخبر الذى ترويه كتب السيرة .

ولقد اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب والنضر بن الحارث – أخو بنى عبد الدار – وأبو البخترى بن هشام ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد ابن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام – عليه لعنة الله – وعبد الله بن أبى أمية ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان ، وأمية بن خلف ، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض :

« ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه ، حتى تعذروا فيه » .

« فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك فأتهم . فجاء رسول الله ، ﷺ ، سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه ، وكان عليهم حريصاً : يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له :

« يا محمد : إنا بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت

الجماعة ، فما بقى أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك .

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ؟

وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ؟

وإن كنت تريد به ملكاً ، ملكناك علينا ؟

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا ، تراه قد غلب عليك – وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا - بذلنا لك من أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيك ؟

فقال لهم رسول الله ، ﷺ :

ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به ، أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم .

ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، أنزل على كتاباً وأمرنى أن أكون بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم بينى وبينكم » .

واستمر الأمر كذلك : ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء ، حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته ، صلوات الله عليه وسلامه ، وكان الإسراء والمعراج ، فارتد من ارتد ، وثبت من ثبت .

كان حادث الإسراء والمعراج هو حادث التصفية الكاملة .

وكان الفيصل بين الطائفتين : طائفة ثابتة على إيمانها ، لا تزعزعها الأعاصير ، تميد الجبال ولا تميد . وطائفة مشركة ، قد أحكمت أمرها ، ورتبت شئونها ، وجزمت العزم على أن تقضى على الإسلام مهما طال الزمن .

ما الإسراء والمعراج ؟

كيف حدثا !

وماذا تضمنا من مبادئ ؟

وما النتائج التى ترتبت عليهما ؟

الفصل الثاني

الإسراء والمعراج من الكتاب والسنة

نصوص قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير) (١) .

(والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على مايرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٢) .

(إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثَمَّ أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على

---

(١) سورة الإسراء : آية ١ .

(٢) سورة النجم : الآيات ١ - ١٨ .

الغيب بضنين)[1] .

* * *

إن فى آيات سورة النجم الشريفة تكريماً عظيماً للرسول ﷺ .
فقد :

١ – نزه الله علمه عن الضلال : (ما ضل صاحبكم) .

٢ – وعمله عن الغواية : (وما غوى) .

٣ – ونطقه عن الهوى : (وما ينطق عن الهوى) .

٤ – وفؤاده عن التكذيب : (ما كذب الفؤاد ما رأى) .

٥ – وبصره عن الزيغ : (ما زاغ البصر) أى ما التفت إلى غير الجهة التى تعنيه .

٦ – وعن الطغيان : (وما طغى) ، والطغيان مجاوزة الحد .

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك كله ، وأقسم عليه ، ولا ريب أنه ثناء من رب العزة على رسوله ﷺ ، فى أروع صورة . وستزيد هذه الآيات شرحاً فيما بعد إن شاء الله .

* * *

---

(١) سورة التكوير : الآيات ١٩ – ٢٤ .

الأحاديث النبوية

١

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البنانى ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال :

« أتيت بالبراق : وهو دابة بيضاء ، فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته ، فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة فى الحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن .

فقال جبريل : أصبت الفطرة .

قال : ثم عرج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل فقيل له : من أنت ؟

قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال محمد ، قيل وقد أرسل إليه ؟

قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟

قال : جبريل ، قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟

قال : جبريل ، قيل ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن . فرحب بى ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟

قال : جبريل ، فقيل : ومن معك – قال : محمد ، فقيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير ، يقول الله تعالى :

(ورفعناه مكاناً عليًّا)[1] .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟

---

(١) سورة مريم : آية ٥٧

قال : جبريل ، فقيل : ومن معك ؟ قال محمد ، فقيل : قد أرسل إليه ؟

قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟

قال : جبريل : قيل : ومن معك ؟

قال : محمد ، فقيل : وقد بعث إليه ؟ . قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟

قال : جبريل : فقيل : ومن معك ؟

قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا : فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك . ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهبت إلى سدرة المنتهى ، فإذا أوراقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ، قال : فأوحى الله إلىَّ ما أوحى . وقد فرض علىَّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى . قال : ما فرض ربك على أمتك ؟

قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك ، فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم .

قال : فرجعت إلى ربى فقلت : أى رب خفف عن أمتى ، فحط عن أمتى خمساً .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فعلت ؟ فقلت حط عنى خمساً ، فقال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قال : فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى . ويحط عنى خمساً خمساً حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة ؛ فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة ، فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته . فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :

« لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت » .

رواه مسلم بهذا السياق .

قال البيهقى : وفى هذا السياق : أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس .

ويقول ابن كثير عن ذلك :

وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

* * *

وقبل أن نبدأ أحاديث أخرى نذكر أنه :

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين ، إلى أن الإسراء والمعراج :

وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة .

بجسد النبى ﷺ وروحه .

بعدالبعثة .

ولقد توارد على ذلك – كما يقول الإمام ابن حجر – ظواهر الأخبار الصحيحة ، ولا ينبغى العدول عن ذلك ، إذ ليس فى العقل ما يحيله [1] حتى يحتاج إلى تأويل .

ولو كان ذلك مناماً ، أو بالروح فقط لما كذب رسول ﷺ مكذب ، لجواز وقوع مثل ذلك وأبعد منه لآحاد الناس .

إن الناس فى الرؤيا يرون أنهم سافروا وأبعدوا ، وذهبوا وجاءوا وعقدوا العقود ورأوا نتائج عقودهم ، وثمار عهودهم ، فلو كنا بصدد

---

(١) بفرضه مستحيلا

رؤيا لما ارتاب فى صدق الصادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه إنسان .

ولما أشفقت السيدة أم هانئ رضى الله عنها على رسول الله ، ﷺ ، لما أخبرها الخبر وقال : إنه سيحدث الناس به ، فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة : إنهم سيكذبونك . فلم يستجب صلوات الله وسلامه عليه لنصيحتها ، لأن الحق ينبغى أن يذاع ، وأذاعه ، ﷺ ، بين الناس ، وحدث ما حدث مما سنذكر بعضه فيما بعد إن شاء الله .

٢

وفى حديث عند الطبرانى والبزاز أنه عليه الصلاة والسلام : مر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان .

فقال لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال: هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم ، على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ،

يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم .

فقال : ما هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم نئ خبيث ، فجعلوا يأكلون من النئ الخبيث ويدعون النضيج .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال جبريل :

هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً ، فتأتى رجلا خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك ، تكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شىء .

قال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

قال : ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

ثم أتى على وادٍ توجد فيه ريح طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صوتاً .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة ، تقول :

رب آتنى بما وعدتنى ، فقد كثرت غرفى وإستبرقى ، وحريرى وسندسى ، وعبقرى ، ولؤلؤى ، ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى بما وعدتنى ! !

قال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحاً ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دون الله أنداداً .

ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل علىَّ كفيته .

إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين :

قالت : فقد رضيت .

ثم أتى على وادٍ فسمع صوتا منكراً ووجد ريحاً منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم ، تقول :

رب آتنى بماوعدتنى : فقد كثرت سلاسلى ، وأغلالى وسعيرى وحميمى ، وضريعى ، وغسّاقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى بما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر كافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

٣

وفى رواية أبى سعيد عندالبيهقى : دعانى داعٍ عن يمينى ، أنظرنى أسألك ، فلم أجبه .

ثم دعانى آخر عن يسارى لذلك فلم أجبه . وفيه :

إذا امرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى ، فقالت :

يا محمد : أنظرنى أسألك ؛ فلم ألتفت إليها . وفيه :

أن جبريل قال له :

أما الداعى الأول : فهو داعى اليهود ، ولو أجبته لتهودت أمتك .

وأما الثانى : فداعى النصارى ، ولو أجبته لتنصرت أمتك .

وأما المرأة : فالدنيا .

وفى حديث أبى سعيد : أنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد ، وأخرى عليها لحم نتن ، عليها ناس يأكلون .

قال جبريل : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام .

وفيه : أنه مر بقوم بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر ، وأن جبريل قال له :

هم أكلة الربا .

وأنه مر بقوم مشافرهم كالإبل ، يلتقمون جمراً فيخرج من أسافلهم ، وأن جبريل قال :

هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .

وأنه مر بنساء تعلقن بثديهن ، وأنهن الزوانى .

وأنه مر بقوم يقطع من جنوبهم اللحم ، فيطعمون ، وأنهم الغمازون اللمازون .

وفيه : حتى أتيت بيت المقدس ، أوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء تربطها فيها فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين .

٤

وفى رواية أنس عند مسلم :

ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت ، فجاءنى جبريل عليه السلام ، بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن .

فقال جبريل :

اخترت الفطرة – أى اخترت اللبن الذى عليه بنيت الخلقة – وقال النووى :

المراد بالفطرة هنا : الإسلام والاستقامة .

٥

وفى رواية ابن مسعود نحوه ، وزاد :

ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين : ما بين قائم ، وراكع وساجد .

ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة ، فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل فقدمنى فصليت بهم .

٦

وفى رواية أبى أمامة عند الطبرانى :

ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ .

٧

وأخرج البزاز من طريق قتادة عن أنس :

«أن محمداً ﷺ رأى ربه عز وجل»

٨

وأخرج البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى :

(وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) .

قال :

« هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ، ليلة أسرى به » .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس أنه كان يقول :

« إن محمداً ﷺ ، رأى ربه مرتين : مرة ببصره ، ومرة بفؤاده » .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس قال :

نظر محمد إلى ربه ، قال عكرمة : فقلت له : نظر محمد إلى ربه ؟ قال : نعم ، جعل الكلام لموسى ، والخلة لإبراهيم ، والنظر لمحمد ﷺ .

٩

وأخرج البيهقى فى (كتاب الرؤيا) بلفظ :

« إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمداً بالرؤيا » .

وأخرجه بلفظ :

« أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤيا لمحمد ﷺ ؟ » .

١٠

وأخرج أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ربى عز وجل » .

١١

وأخرج مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :

« مررت ليلة أسرى بى على موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره » .

١٢

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ « مر على موسى وهو قائم يصلى فى قبره » [١] .

١٣

وأخرج ابن مردويه من طريق قتادة عن أنس :
« أن النبى ﷺ فرضت عليه الصلاة ليلة أسرى به » .

١٤

وأخرج ابن مردويه من طريق قتادة ، عن مجاهد ، عن ابن عباس عن أبى بن كعب ، عن رسول الله ﷺ قال :
« ليلة أسرى بى وجدت ريحاً طيبة ، فقلت : يا جبريل ، ما هذه ؟ قال :

هذه الماشطة وزوجها وابنها ، بينما هى تمشط ابنة فرعون ، إذ سقط المشط من يدها ، فقالت تعس فرعون ، فأخبرت أباها فقتلها .

---

(١) وهذه رواية أخرى تؤيد السابقة ، رويناها متعمدين لما سنذكره من هذا الموضوع .

١٥

وأخرج أحمد والنسائى والبزاز والطبرانى والبيهقى ، وابن مردويه بسند صحيح من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال :

قال رسول الله ﷺ :

ولما [١] أسرى بى مرت بى رائحة طيبة ، فقلت :

ما هذه الرائحة ؟

قالوا : ماشطة بنت فرعون وأولادها ، سقط مشطها من يدها ،

فقالت بسم الله .

فقالت ابنة فرعون : أبى ؟

قالت : ربى هو ربك ورب أبيك .

قالت : أولك رب غير أبى ؟

قالت : نعم .

فدعاها فقال : ألك رب غيرى ؟

قالت : نعم ، ربى وربك الله .

فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها فألقوا واحداً واحداً ، حتى بلغ رضيعاً فيهم فقال :

قعى يا أمه ولا تقاعسى فإنك على حق .

---

(١) هذه رواية غير السابقة .

قال : وتكلم أربعة وهم صغار ، هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم .

١٦

وأخرج الترمذى – وحسنه وابن مردويه من طريق عبد الرحمن عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال :

يا محمد ! أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولاحول ولاقوة إلابالله العلى العظيم » .

١٧

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به مر على إبراهيم عليه السلام ، فقال له إبراهيم :

مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة ، فإن تربتها طيبة ، وأرضها واسعة ، فقال النبى ﷺ :

« وما غراس الجنة ؟

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » .

١٨

وأخرج أحمد وأبو داود من طريق عبد الرحمن بن جبير عن أنس قال :

قال رسول الله ﷺ :

« لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت :

من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم » .

١٩

وأخرج ابن مردويه ، من طريق قتادة وسليمان التيمى وثمامة وعلى ابن زيد ، عن أنس أن النبى ﷺ قال :

« ليلة أسرى بى مررت بناس تقرض شفاههم بمقارض من نار كلما قرضت عادت .

فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء أمتك ، يقولون ما لا يفعلون » .

٢٠

وأخرج ابن ماجه والحكيم الترمذى فى (نوادر الأصول) ، وابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق يزيد بن أبى مالك ، عن أنس قال .

قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ليلة أسرى بى مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر .

فقلت لجبريل :

ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟

قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

٢١

أخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ليلة أسرى بى رجلا يسبح فى نهر يلقم بالحجارة .

فسألت : من هذا ؟

فقيل لى : هذا آكل الربا » .

٢٢

وجاء فى رواية أبى سعيد الخدرى عن البيهقى ، وفى رواية أبى هريرة عن ابن أبى حاتم :

« فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر ، فيقول :

اللهم لا تقم الساعة وهم على سابلة آل فرعون ، قال :

فتجىء السابلة ، فتطؤهم ، قال فسمعتهم يضجون إلى الله ، قال :

قلت يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك :

(الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) [١] .

٢٣

وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لما أسرى بى انتهيت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها أمثال القلال » .

---

(١) سورة البقرة من آية ٢٧٥ .

٢٤

وعن ابن عباس رضى الله عنهما – فيما رواه الإمام أحمد قال :
قال رسول الله ﷺ :

« لما كانت ليلة أسرى بى . وأصبحت بمكة ، فظعت أمرى . وعرفت أن الناس مكذبىَّ » .

قال : فمر عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إلىَّ . فقال له أبو جهل كالمستهزئ :

هل كان من شىء ؟

فقال رسول الله ﷺ :

« نعم »

قال : ما هو ؟

قال :

« إنه أسرى بى الليلة » .

قال : إلى أين ؟

قال :

« إلى بيت المقدس » .

قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال :

« نعم »

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجحده الحديث إذا دعا .

قال : أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتنى ؟

فقال رسول الله ﷺ :

« نعم »

فانطلق أبو جهل إلى قريش فقال :

هيا يا معشر بنى لؤى .

قال : فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتنى .

فقال رسول الله ، ﷺ :

« إنى أسرى بى الليلة » .

قالوا : إلى أين ؟

قال :

« إلى بيت المقدس » .

قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال :

« نعم »

فإذا بالقوم بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجباً !

قالوا : وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟

– وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد – فقال رسول الله ﷺ :

« فذهبت أنعت ، فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت فجيء بالمسجد وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل . فنعته وأنا أنظر إليه » .

قال : فقال القوم : « أما النعت فوالله لقد أصاب » .

وعن الحسن : أنه فى يوم الحديث عن الإسراء : ارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر ، فقالوا له :

– هل لك يا أبا بكر فى صاحبك !

يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه ورجع إلى مكة !

فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه ؟ !

فقالوا : لا ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

قال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجبكم من ذلك ؟

فوالله إنه ليخبرنى : أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة .

قال :

« نعم »

قال : يا نبي الله فصفه لى فإنى قد جئته ؟

قال الحسن : فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« فرجع لى حتى نظرت إليه » . فجعل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يصفه لأبى بكر ، ويقول أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، قال : حتى انتهى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأبى بكر : وأنت يأبا بكر : « الصديق » فيومئذ سماه « الصديق » .

* * *

هذا هو الموجز الذى ترويه السنة مؤيدة القرآن عن هذا النبأ الجليل ، ولقد حاول ابن إسحاق أن يبين الحكمة فى هذا الحادث فقدم – حسبما يروى ابن هشام – لحديث الإسراء بكلمة نفيسة يقول فيها :

« وكان فى مسراه وما ذكر منه : بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء وكما شاء : ليريه من آياته الكبرى ما أراده ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » .

أما الإمام البوصيرى فإنه يقول فى « همزيته » المباركة :

فطوى الأرض سائراً والسموا
ت العلا فوقها له إسراء
نصف الليلة التى كان للمخـ
ـتار فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسين
وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى
دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث الناس شكراً
إذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب
أو يبقى مع السيول الغثاء ؟

هذا النبأ الجليل يسمعه قوم ، فلا يصل إلا إلى الجوانب الظاهرية منهم ، فيأخذون فى الجدل الشكلى ، أكان ذلك فى اليقظة ؟

أم كان ذلك فى النوم !

أكان ذلك بالروح والجسد ؟

أم كان بالروح فقط ؟

وهل كان ليلا ؟

أم كان نهاراً ؟

وهذه كلها صور من الجدل الذى يثور ، حينما يخف وزن الإيمان فى النفوس [1] ويسمع هذا النبأ قوم ، فيصل إلى أعماق قلوبهم ، فيتجهون فى صورة طبيعية إلى مغزاه العميق ، وإلى روحانيته السامية ، ويرون أن هذا النبأ : ينطوى على توجيهات لا ينبغى أن يمر عليها الناس مر الكرام . .

من هذه التوجيهات :

١ – لقد كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، خاتمة سلسلة من الأنوار التى يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة لتهدى إلى الرشاد ، ولتقود إلى الله ، ولتسمو بالمؤمنين درجات فى معارج القدس ، لتصل

---

(١) يقول شوقى رحمه الله فى قصيدته التى عارض فيها الإمام البوصيرى هذه الأبيات الجميلة :

يتساءلون – وأنت أطهر هيكل ... بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهراً وكلاهما ... نور وروحانية وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومنة ... والله يفعل ما يرى ويشاء
تغشى الغيوب من العوالم كلما ... طويت سماء قلدتك سماء
فى كل منطقة حواشى نورها ... نون وأنت النقطة الزهراء
أنت الجمال بها وأنت المجتلى ... والكف والمرآة والحسناء
الله هيأ من حظيرة قدسه ... نزلا لذاتك لم يجزه علاء
العرش تحتك سدة وقوائم ... ومناكب الروح الأمين وطاء
والرسل دون العرش لم يؤذن لهم ... حاشا لغيرك موعد ولقاء

بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو ، عن طريق الإرشاد الإلهى . وكان الكتاب الذى أنزل عليه ، صلوات الله عليه وسلامه ، وهو القرآن : خاتم الكتب وأكملها ومهيمناً عليها .

ولأن رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، تخلق بأخلاق أكمل كتاب ربانى ، فهو إذن أكمل رسول ، ومن هنا كانت إمامته ، صلوات الله عليه وسلامه بالرسل والأنبياء فى بيت المقدس .

ولأنه صلوات الله عليه وسلامه أكمل رسول :

كان من أجل ذلك أقرب المقربين إلى الله سبحانه وتعالى .

لقد تخطى الأرضين والسموات ، وتجاوز الكون كله ، ووصل إلى ما لم يصل إليه بشر ، بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه ، عليه السلام ، لقد وصل ، صلوات الله وسلامه عليه إلى :

« قاب قوسين أو أدنى » .

وكما أن المعنى الذى يدل عليه نبأ المعراج : من وجود الأنبياء والرسل فى السموات ، ومن أن الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه ، أخذ يتجاوز هذه السموات الواحدة بعد الأخرى ، يتجاوز الأنبياء واحداً بعد الآخر ، نقول : كما أن المعنى الذى يدل عليه النبأ معنى مكانى ، فإنه أيضا – بل بطريق أولى – معنى روحى . أى أن الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه فى تساميه الروحى فى كل لحظة من اللحظات قد بلغ معراجه إلى درجات تجاوزت – فى روحانيتها – آدم فى سمائه الأولى ، ثم

تجاوزت . . . و . . . وهكذا حتى تجاوزت روحياً إبراهيم عليه السلام فى سمائه السابعة . لقد تجاوز رسول الله ، ﷺ كل ذلك ، وتجاوز الكون كله إلى سدرة المنتهى ، إلى السدرة المنتهى ، إلى شجرة النهاية ، ثم إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ، ولا نبى مرسل إلى « قاب قوسين أو أدنى » .

ولقد رأى من آيات ربه الكبرى ، هذا هو مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ! !

* * *

ولكن بعض الناس ينزل بنا من هذه الآفاق العليا والسموات السامية ، ومن الرحاب الإلهى . ينزل بنا منحدراً فيجادل فى الإسراء والمعراج .

أكان رؤيا ؟

أم كان يقظة ؟

أستغفر الله وأتوب إليه ! . .

إن ذلك الجدال إن دل على شىء فإنما يدل على ضعف الإيمان فى قلب المجادل المارى .

* * *

٢ – وإذا كانت التوجيهات السابقة ، إنما كانت لتدلنا على مقام رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، فنزداد بذلك تقديراً وحباً واتباعاً ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبأ الإسراء

والمعراج : هذه الرمزيات الأخلاقية التى تربط ربطاً محكماً بين الدين والأخلاق .

والواقع أن الأخلاق فى جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطاً لاينفصل : منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر ، إنها جزء من الدين الإسلامى ، لا يتجزأ ، مصدرها هو مصدره : إلهى ربانى .

وبعض الناس فى العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى .

يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يربى ويكون ، وتربيته وتكوينه هما شكله ، ونزعته واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة : إنما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

والمصلحة العامة إذن كأساس للأخلاق : إنما هى أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية أو

اللذة ، أو إلى المنفعة ، وكل هذا وارد الغرب عندما انحرف هذا الغرب وألحد .

أما وارد الشرق الإسلامى ، أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهى ، فإن مقياس الأخلاق فيه : إنما هو المبادئ الدينية ، إنما هو آيات القرآن ، وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله ، سبحانه وتعالى . هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين ، وتحدث عنها نبأ الإسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة ، وبينتها السُّنة النبوية الشريفة ، وركزها القرآن والسنة على أسس من الإيمان قوية ثابتة ، إنها فى رحلة الإسراء والمعراج تكون منهج حياة مؤسسة على الإيمان بالله ورسوله ، وهذا المنهج هو الذى نريد رسمه الآن بتوفيق الله تعالى .

الفصل الثالث

مَنهج الحيَاة الذى رَسمته أنباء الإسْراء والمِعْراج

ونعود من جديد إلى أسانيد حادث الإسراء والمعراج فى السُّنة الشريفة ، فنقول :

إن حادث الإسراء والمعراج ورد فى روايات عدة ، منها الصحيح ، ومنها الحسن ، أخرجها أئمة الحديث رضوان الله عليهم ، يذكر بعضها ما لم يذكره البعض الآخر ، تتفق فى جوهرها ولا تتعارض فى جزئياتها ، يرويها بعضهم مختصرة ، ويرويها بعضُهم متوسطة ، ويرويها بعضهم مطولة ، وكل صورة منها يتعدد سندها ، أى يختلف الرواة الذين رووها ، ومع ذلك تكون الصورة واحدة فى جوهرها .

الجوهر إذن متواتر ، وإذا أخذنا برأى الإمام ابن حزم فى أن المتواتر ما روى بروايتين فإن التفاصيل – فى أغلبها – تكون أيضاً متواترة .

كل هذا مع ثبوت الأمر فى جوهره بالكتاب العزيز . ونحن إذن حينما نبدأ فى الحديث عن الإسراء والمعراج على أنه منهج الحياة ، ونستمد الصورة أحياناً من الجزئيات والتفاصيل ، فإنما نقف فى ذلك على أرض صلبة ونسير فى الرسم على أساس من المروى .

التوبة

وتبدأ قصة الإسراء والمعراج فى بعض روايات البخارى . وفى بعض روايات غيره بشق الصدر ، من ذلك ما يرويه أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال :

كان أبي بن كعب يحدث أن رسول الله ﷺ قال :

« فرج سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ، ثم غسله من ماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها فى صدرى ثم أطبقه . . . » .

هذا الحادث هو بالنسبة لنا التوبة ، فإن تطهير القلب الذى حدث لرسول الله ﷺ ، عدة مرات فى حياته إنما هو بالنسبة لأتباعه بمثابة التوبة.

والواقع أن حياة المسلم فى طريقه إلى الله ، إنما تبدأ بالتوبة ، وليس قبل التوبة من درجة تسبقها ، والتوبة التى نتحدث عنها إنما هى التوبة الخالصة النصوح ، فإن الله تعالى يقول :

(يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً . .)[1] .

فأرشد سبحانه إلى أن التوبة المطلوبة إنما هى التوبة النصوح ، ولأجل أن تكون التوبة خالصة نصوحاً فإنه لابد من توفر شروط .

---

(١) سورة التحريم : آية ٨ .

ويتحدث الإمام النووى عن شروطها فى كتابه المبارك « رياض الصالحين » فيقول :

التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى ، لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط :

أحدها – أن يقلع عن المعصية .

والثانى – أن يندم على فعلها .

والثالث – أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً .

فإن فقد أحد الثلاثة فلا تصح التوبة .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف أو نحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها .

ولأن التوبة أول سلم فى معراج السالكين إلى الله ، ولأنها واجبة من كل ذنب ، ولأنها تجب [(١)] ما قبلها ، ولأنها تضع الإنسان فور تحققه بها فى مرتبة البراءة والطهارة والنقاء ، فإن الإسلام حث عليها كثيراً . يقول الله تعالى آمراً بها :

(وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) [(٢)] .

---

(١) أى تمحوه وتزيله

(٢) سورة النور : آية ٣١

وقد فتح الله بابها – خالصة نصوحا – على مصراعيه ، فقال فى أسلوب يسيل رحمة ورأفة :

(قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [1].

إنه سبحانه يغفرها بالتوبة ، لأنه سبحانه يقول بعد ذلك موجهاً المسلمين إلى الطريق :

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) [2] .

ويتابع القرآن فى التوجيه إلى التوبة فى أسلوب كله رحمة ورأفة ما جاء فى حديث قدسى طويل رائع ، يقول الله تعالى فيه :

« يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفرونى أغفر لكم » .

ويتابع ذلك كله الأحاديث النبوية :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

ورسول الله ﷺ ، يعترف بالخطيئة كواقع لا يتأتى إنكاره فيقول :

---

(١) سورة الزمر : آية ٥٣ .

(٢) سورة الزمر : الآيتان ٥٤ و ٥٥ .

« كل ابن آدم خطاء » .

ولكنه يرشد إلى الوسيلة التى تفضل بعض الخطائين وتجعل لهم منزلة فى الخير ، فيقول :

« وخير الخطائين التوابون » .

يقول الإمام القشيرى :

ومن لطائف المعراج : ما خص به أول حاله فى تلك الليلة بالطهارة على ما ذكرنا فى بعض الروايات فيما تقدم : أن جبريل عليه السلام حمله إلى زمزم وشق صدره وغسل قلبه .

وقد شق قلب النبى ﷺ مرتين : مرة فى حالة صباه ، وهو بعد فى حجر حليمة ، والمرة الثانية ليلة المعراج .

وفى تخصيص قلبه بالغسل دون غيره من البدن إشارات . منها : أن القلب محل العرفان ، وهو المضغة التى بصلاحها صلاح البدن .

وهو محل المشاهدة .

ولكى لا يكون لغير الحق نصيب فى قلبه .

ولتنبيه الأمة على طهارة القلب .

وإذا كان شق الصدر الذى سبق هذا الحادث الخطير — حادث الإسراء والمعراج — هو بالنسبة لنا التوبة ، فإنه أيضاً توجيه واضح لنا أن نلجأ إلى الله تعالى تائبين عند الشروع فى أى عمل له قيمته .

إنه توجيه لنا أن نلجأ إلى الله تائبين عند الشروع فى شراء ، وفى

بيع ، فى ارتباط بزواج ، فى بناء بيت ، فى الشروع فى سفر .

وليست التوبة فى مثل ذلك توبة من ذنب . وإنما هى التجاء إلى الله ، وتشفع إليه سبحانه بتأكيد صفاء النفس وطهارة القلب من أجل أن يسدد الخُطى ويمنح التوفيق ، ويحفظ من الأخطاء .

إنها توسل إلى الله بعمل صالح هو التوبة .

الغاية فى منهج الحياة

ويمكن للإنسان أن يتعجل السؤال عن الغاية فيقول :

إذا كان بدء الرحلة الإسلامية إنما هو التوبة فما نهايتها ؟

ونقول دون تردد ولا شك :

ليس دون الله منتهى .

وذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الغاية للمؤمن المتبصر .

ولقد أعلن الله صراحة أنه سبحانه إليه المنتهى فقال :

(وأن إلى ربك المنتهى)[1] .

ويقول أبو سعيد الخراز رضى الله عنه معبراً عن شعور المؤمن بالنسبة لله سبحانه :

---

(١) سورة النجم : آية ٤٢ .

« كل ما فاتك من الله سوى الله يسير ، وكل حظ لك سوى الله قليل » .

إن هجرة المؤمن إليه سبحانه :

(إنى ذاهب إلى ربى سيهدين)[1] .

وفرار المؤمن إلى الله ، ولقد أمر الله بالفرار إليه فقال :

(ففروا إلى الله)[2] .

وذهاب المؤمن إليه :

(إنى ذاهب إلى ربى) .

ولقد كانت نهاية الرحلة التى نحن بصددها – رحلة الإسراء والمعراج – الانتهاء إلى الله سبحانه وتعالى ، فهى رحلة انتهت إلى غايتها الحقيقية التى هى الله ، فحققت :

(وأن إلى ربك المنتهى) .

وإنه – إذا تحدثنا عن ثمرة السلوك إلى هذا المنتهى – بمقدار قرب السالك من هذا المنتهى تكون رعاية الله له وعنايته به .

على أن هذه الرعاية ، وهذه العناية تبدأ منذ الخطوة الأولى التى تتمثل فى الاستغفار .

---

(١) سورة الصافات : آية ٩٩ .

(٢) سورة الذاريات : آية ٥٠ .

والله سبحانه وتعالى يأمر بالاستغفار ، ويبين ما يترتب عليه من آثار .

وهى آثار ليست بالهينة ، أو التافهة ، إنها آثار ضخمة ، يقول سبحانه :

(استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا)[1] .

ويقول سبحانه :

(استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم)[2] .

وكلما ازداد الإنسان استغراقاً فى السلوك إلى الله ، ازدادت رعاية الله له وعنايته به ، حتى إذا ما انتهى إليه سبحانه كانت العناية المناسبة ، والرعاية الكافية ، فى الدنيا والآخرة :

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم)[3] .

وليس معنى الوصول إلى هذا المنتهى – وهو الله سبحانه – الاستقرار الروحى ، كلا ، وإنما معناه من جانب ، زوال القلق والاضطراب النفسى . وزوال هم الرزق ، وخوف الموت ، وزوال كل ما يصرف

---

(١) سورة نوح : الآيات ١٠ – ١٢ .

(٢) سورة هود : آية ٥٢ .

(٣) سورة يونس : الآيات ٦٢ – ٦٤ .

الإنسان عن الله ، أو يشغل بؤرة التفكير ، ويحل فى أعماق النفس .

ولكن الوصول إلى هذا المنتهى معناه من جانب آخر – الرقى الروحى الدائم ، الفيوضات الإلهية المستمرة ، المعرفة اللدنية المتتالية ، وصلوات الله وسلامه على من وصل إلى هذا المنتهى وأمر مع ذلك أن يقول :

(ربِّ زدنى علما)[1] .

وزيادة العلم فى عرف أولياء الله ، إنما هى زيادة السعادة ، ومن أجل ذلك يقول أحد العارفين :

نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لجالدونا عليها بسيوفهم .

وتتلون السعادة بلون المعرفة ، ولكل باب من أبواب المعرفة مذاق خاص ، فله إذن لذة خاصة – إذا أمكن التعبير بكلمة اللذة فى هذا المقام – وهو يسلم إلى ما يليه ، وما يليه له مذاقه الخاص فله أيضاً لذته ، إنها جنة الدنيا فى سموها وجمالها وجلالها .

ولا يحجب أولياء الله عن الله مال . وقد يكونون فى ثراء عريض فلا يصرفهم ذلك عن الله ، وما صرف سليمان ملكه عن الله ، وقد يعرض عليهم الثراء العريض فلا يعيرونه أهمية .

ولقد قال رسول الله ﷺ :

---

(١) سورة طه : آية ١١٤ .

« خيرت بين أن أكون ملكاً رسولا . أو عبداً رسولا ، فاخترت أن أكون عبداً رسولا » .

ويتحدث الإمام أبو سعيد الخراز عن ذلك بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فيقول :

وهذا النبى ﷺ :

بينما جبريل عليه السلام عنده ، إذ تغير جبريل . فإذا ملك قد نزل من السماء لم ينزل قط .

فقال جبريل عليه السلام : خشيت أنه نزل فى أمر .

فجاء إلى النبى ﷺ بالسلام من عند الله عز وجل وقال له :

هذه مفاتيح خزائن الأرض تسير معك ذهباً وفضة مع البقاء فيها إلى يوم القيامة ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً .

فلم يختر النبى ﷺ ذلك . وقال :

« أجوع مرة وأشبع مرة » .

ولا يحجب أولياء الله عن الله لذة حسية فهم فى لذة دائمة مستمرة أسمى وأنفس .

إنهم لا يحجبهم عنه متاع دنيوى أياً كان . فاستبشار قلوبهم بقربها إلى الله تعالى ، وسرورها به ، وهدوئها فى سكونها إليه وأمنها معه .

ما بين البدء والغاية

الجهاد

كيف الوصول إلى هذا المنتهى الذى فيه الرضا ، وفيه زيادة الأنوار ، وتلاحقها على الدوام ، وفيه السعادة التى لا تنقطع ، وفيه مرضاة الله سبحانه وتعالى ، وحفظه وعنايته ، ورعايته ومحبته ؟

هذا ما ترسمه الرحلة المباركة فيما بين شق الصدر أو التوبة وبين : (ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى)[1] .

وبمجرد أن تبدأ الرحلة المباركة ، يرى رسول الله ﷺ أمراً عجيباً .

إنه يرى قوماً يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان .

فقال النبى ﷺ لجبريل عليه السلام : ما هذا ؟

قال : « هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » .

وتنقلنا هذه الرؤية من التوبة مباشرة إلى الجهاد .

وهذا انتقال طبيعى ، فإنه إذا كانت التوبة حقًّا خالصة نصوحاً استتبعت لامحالة الجهاد .

وللجهاد فى الدين الإسلامى مكانة عظمى : فقد روى الشيخان

(١) سورة النجم : الآيتان ٨ و ٩ .

بسندهما عن أبى ذر رضى الله عنه قال :

قلت يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟

قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيله » .

والجهاد فى سبيل الله أوسع وأعم من أن يقتصر على الجهاد الحربى .

إن من أنواع الجهاد فى سبيل الله ، جهاد النفس حتى تستقيم على التوبة ، وجهادها على العموم حتى تتزكى من بعد التوبة .

(قد أفلح من زكاها) [1] .

(ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه) [2] .

وجهاد الأسرة حتى تستقيم على أمر الله .

والله سبحانه وتعالى يقول :

(يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) [3] .

وكان سيدنا إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً .

ولا يغنى جهاد النفس وجهاد الأسرة عن جهاد المجتمع .

---

(١) سورة الشمس : آية ٩ .

(٢) سورة فاطر : من الآية ١٨ .

(٣) سورة التحريم : آية ٦ .

وكل ذلك أنواع متناسقة من ميدان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهو مبدأ أساسى فى الدين الإسلامى ، ولأجل أن يبين الله سبحانه وتعالى أهميته الكبرى ، ذكره قبل الإيمان بالله ، مبينا أنه مناط خيرية الأمة الإسلامية فقال سبحانه :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

وعلى العكس من ذلك اليهود فقد :

(لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

ولقد بين الإسلام وسائل الجهاد بحسب الظروف والملابسات ، وبحسب الإمكانات والاحتمالات .

عن أبى مسعود رضى الله عنه – فيما رواه الإمام مسلم – أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمّته حواريون وأصحاب يأخذون بسنّته ويقتدون بأمره » .

ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون .

فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن .

ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن .

ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

وصور رسول الله ﷺ المجتمع ووجوب الأخذ على يد المفسد فيه – حتى لا يكون الهلاك – بالصورة الرائعة التالية التى رواها الإمام البخارى عن النعمان بن بشير عن رسول الله ، ﷺ ، قال :

« مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً » .

وروى الترمذى عن حذيفة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

وعن أبي سعيد الخدرى عن النبى ، ﷺ ، قال :

« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

وأن الله سبحانه وتعالى لا يخلى الأرض من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر ، فقد جاء فى الصحيحين :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم كذلك » .

أما الجهاد فيكفى – لبيان أنه من طبيعة الإسلام – أن نذكر فيه حديثين أو ثلاثة ، وأن نذكر فيه آيتين من القرآن أو ثلاثاً .

ونبدأ فى ذلك بما رواه الإمام مسلم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه – فيما رواه الترمذى – قال :

« مر رجل من أصحاب رسول الله ، ﷺ ، بشعب فيه عيينة من ماء عذبة فأعجبته فقال :

« لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ، ﷺ . فذكر ذلك لرسول الله ، ﷺ .

فقال : لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟

اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة ، وجبت له الجنة .

وروى أبو داود بإسناد جيد ، عن أبى أمامة رضى الله عنه : أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لى فى السياحة ، فقال النبى ﷺ : « إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله عز وجل » .

والقرآن يربط الجهاد بالإيمان بحيث لا يتأتى أن يوجد الإيمان الصادق إلا والجهاد من عناصره . لقد اشترى الله – فى عقد الإيمان – من المؤمنين أنفسهم وأموالهم :

(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) .

والجهاد تجارة مع الله :

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) .

والجهاد داخل فى صدق الإيمان :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

إن الجهاد بأوسع معانيه إنما هو الخطوة الأولى بعد التوبة .

حياة الأنبياء والشهداء بعد الموت

إن الصلاة فى ترتيب الرحلة المباركة يأتى رمزها بعد رمز الجهاد مباشرة ، ولكننا مراعاة لما بين هذا الموضوع وما قبله نذكره هنا ثم نعود للترتيب الطبيعى فى الرحلة المباركة .

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أتيت – وفى رواية هداب : مررت – على موسى ليلة أسرى بى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلى فى قبره » .

وأخرج الإمام مسلم أيضا بعدة طرق عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : مررت على موسى وهو يصلى فى قبره » .

وقد أخرج الإمام مسلم فى الصحيح من حديث عبد العزيز ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

« . . . وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء » .

فإذا موسى قائم يصلى ، فإذا رجل ضرب [1] جعد كأنه من رجال شنوءة [2] ، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلى ، أقرب الناس به شبها عروة ابن مسعود الثقفى .

وإذا إبراهيم قائم يصلى ، أشبه الناس به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة ، فأممتهم . .

ولقد وردت السنّة الصحيحة بأن أجسام الأنبياء لا تأكلها الأرض ، أى أنها لا تبلى . فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن أوس ابن أوس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا علىّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ . قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت - يريدون بليت - فقال : إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء عليهم السلام » .

هذا الحديث أخرجه أيضاً الحاكم وصححه النووى ويقول البيهقى عنه : أخرجه أبو داود السجستانى فى كتاب السنن وله شواهد .

ثم يروى - من هذه الشواهد - بإسناده عن أبى مسعود الأنصارى ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :

---

(1) الضرب من الرجال هو الخفيف اللحم .

(2) شنوءة : قبيلة من قبائل العرب .

« أكثروا من الصلاة عليّ فى يوم الجمعة ، فإنه ليس أحد يصلى عليّ يوم الجمعة إلا عرضت عليّ صلاته » .

وروى البيهقى – من هذه الشواهد أيضاً – بإسناده عن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أكثروا عليّ من الصلاة فى كل يوم جمعة ، فإن صلاة أمتى تعرض عليّ فى كل يوم جمعة ، فمن كان أكثرهم عليّ صلاة ، كان أقربهم منى منزلة » .

وسواء كان الإنسان بجوار الضريح الشريف أم كان بعيداً عنه فإن صلاته تبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فلقد أخرج البيهقى فى شعب الإيمان ، والأصبهانى فى الترغيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« من صلى عليّ عند قبرى سمعته ومن صلى عليّ نائياً بلغته »

ومن هذا القبيل ما أخرجه الإمام البخارى فى تاريخه عن عمار قال : سمعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

« إن لله تعالى ملكاً أعطاه أسماع الخلائق ، قائم على قبرى ، فما من أحد يصلى عليّ صلاة إلا بلغنها » .

ولقد أثبت الإمام القشيرى حياة الأنبياء بعدة طرق ، وأورد أحاديث فى ذلك ، نذكر منها حديث عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم :

« إن لله ملائكة سياحين فى الأرض يبلغوننى عن أمتى السلام » .

ويقول الإمام القشيرى تعليقاً على هذا الحديث : ولا يبلغ السلام إلا ويكون حياً .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه – فيما رواه ابن ماجه بإسناد جيد – قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« أكثروا من الصلاة علىّ يوم الجمعة . فإنه مشهود : تشهده الملائكة ، وإن أحداً لن يصلى علىّ إلا عرضت على صلاته حتى يفرغ منها » .

قال أبو الدرداء ، قلت : وبعد الموت ؟ قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

إن الأنبياء أحياء فى قبورهم بمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لموسى عليه السلام ، وبرؤيته للأنبياء ، وحديثه معهم ، وصلاته بهم .

أما الصلاة التى كانوا يصلونها ، فإنها لم تكن فرضاً وتكليفاً ، وإنما كانت شكراً وحمداً لله على نعمه ، وليس فى الآخرة تكليف ؛ وإن كان فيها أيضاً ترق روحى لا ينتهى ، لأن المدد الإلهى لا ينتهى ولكل درجة من درجات هذا المدد شعور بالحمد والثناء على الله والشكر لله ، يتناسب مع درجته ، والله سبحانه وتعالى يقول :

(دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

وقد يتساءل إنسان عن هذه الحياة بعد الموت. أهى خاصة بالأنبياء ؟ .

ونقول : إن القرآن الكريم يثبتها فى يقين جازم للشهداء ، يقول تعالى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وبمناسبة هذه الآية روى الترمذى وحسّنه ، وابن ماجه بإسناد حسن أيضاً ، والحاكم وقال صحيح الإسناد : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لما رأى جابر بن عبد الله مهتماً لاستشهاد أبيه فى غزوة أحد ، قال له مطمئناً مبشراً : ألا أخبرك ما قاله الله لأبيك ؟

فقال جابر : بلى ؛ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

«ماكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً».
والكفاح : المواجهة. قال : سلنى أعطك. قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى القول : «بأنهم إليها لا يرجعون» قال : أى رب فأبلغ من ورائى ، أى أبلغهم هذه النعمة الكبرى فى الجنة التى يتقلب فيها الشهيد ، فأنزل الله تعالى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

وقال تعالى :

(ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) .

ويقول الإمام القشيرى : « فأخبر سبحانه أن الشهداء أحياء عند ربهم ، فالأنبياء أولى بذلك لتقاصر رتبة الكافة عن درجة النبوة » .

قال الله تعالى :

(فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء) .

فرتبة الشهادة ثالث درجة النبوة ، ولقد وردت الأخبار الصحيحة والآثار المروية بما يدل على هذه الجملة .

وبمناسبة الآيات القرآنية الشريفة عن الشهداء يقول ابن القيم : إن الله تعالى عزى نبيه وأولياءه من قتل منهم فى سبيله أحسن تعزية وألطفها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم بقوله : « ولا تحسبن » الآيات . فجمع لهم إلى الحياة الدائمة ، منزلة القرب منه ، وأنهم أحياء عنده ، وجريان الرزق المستمر عليهم ، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضا ، بل هو كمال الرضا ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم ، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته » .

ولقد أخرج أحمد وعبد بن حميد فى مسنديهما ، والطبرانى بسند

حسن عن محمود بن لبيد عن ابن عباس مرفوعاً : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة غدوة وعشية » .

وفى حياة الأنبياء والشهداء يقول القرطبى :

« الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء يرزقون فرحين مستبشرين ، وهذه صفة الأحياء فى الدنيا ، وإذا كان هذا فى الشهداء فالأنبياء أحق بذلك وأولى ، وقد صح أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء فى بيت المقدس ، وفى السماء ، ورأى موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره ، وأخبره بأنه يرد السلام على كل من سلم عليه ، إلى غير ذلك مما يحصل من جملة القطع ، بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أنهم غيبوا عنا بحيث لا ندركهم وإن كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال فى الملائكة فإنهم موجودون ولا يراهم أحد من نوعنا إلا من خصه الله بكرامته من أوليائه » .

والفقهاء يتحدثون عن الشهداء فى استفاضة ، ومما أثاروه بهذه المناسبة ، مسألة سؤال القبر بالنسبة للشهيد ، ولقد أفتى الإمام السيوطى بأن سؤال القبر ليس عاماً للخلق : بل يستثنى منه الشهيد ، ففى الحديث :

« أنه صلى الله عليه وآله وسلم سئل : أيفتن الشهيد فى قبره ؟ فقال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » .

قال القرطبى فى التذكرة نقلا عن الحكيم الترمذى : معناه أنه لو كان عنده نفاق فر عند التقاء الزحفين وبريق السيوف ، لأن من شأن المنافق الفرار عند ذلك ، وشأن المؤمن البذل والتسليم لله ، فلما ظهر صدق ضميره حيث برز للحرب والقتل لم يعد عليه السؤال فى القبر الموضوع لامتحان المسلم الخالص من المنافق .

وقال القرطبى : وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق من باب أولى لأنه أجلّ قدراً ، وممن يستثنى : المرابط فقد ورد فيه أحاديث ، والمطعون ، والصابر فى بلد الطعن محتسباً حتى مات بغير الطاعون – صرح به الحافظ ابن حجر فى كتاب « بذل الماعون » .

ولعل هذه الحياة البرزخية ليست للأنبياء والشهداء فحسب ، وإنما هى لجميع الناس حتى الكفار منهم ، على أن القرآن والسنة يشيران إلى حياة الكفار بعد الموت قبل القيامة ، يقول تعالى عن آل فرعون :

(النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب) .

ولا ريب فى أن النار التى يعرضون عليها ليست نار يوم القيامة . فما فى القيامة غدو وعشى ، ومافيها شروق وغروب . ثم إن العطف يقتضى المغايرة ، ومنطوق الآية : إن آل فرعون يعرضون على النار فى الصباح

وفى المساء ، يرون مكانهم فيها ومصيرهم الذى سيصيرون إليه ، حتى إذا كان يوم القيامة نادى مناد آمراً : « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ، أدخلوهم بعد أن كانوا يعرضون غدوا وعشيا ، أدخلوهم إلى إقامة مستمرة .

على أن حادثة أصحاب القليب معروفة مشهورة ، رواها الإمام البخارى بعدة روايات . ورواها غيره بعدة روايات أيضاً . من هذه الروايات الرواية الآتية عن البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، سمع روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة قال : ذكر لنا أنس بن مالك ، عن أبى طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال ، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلة فشد عليها رحلها ، ثم مشى وتبعه أصحابه وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته ، حتى قام على شفة الركى فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان ، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟

فقال عمر : يا رسول الله أتكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم :

« والذى نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » .

هذه الروايات كلها تتكاتف وتتساند ، مع الأحاديث التى رويت فى عذاب القبر ، ونعيمه ، والتى تخبر أن القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار ، فتدل بمجموعها على أن كل إنسان إذا فارق الدنيا ، فإنما انتقل من طور إلى طور ، وأنه إذا كان الجسم سيبلى فإن الروح – مركز الشعور والإحساس والفكر – باقية تحس وتشعر وتفكر .

وعن المؤمنين عامة يحسن أن نورد القصة التالية :

أخرج البيهقى فى البعث ، والطبرانى بسند حسن ، عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك قال : «لما حضرت كعباً الوفاة آتته أم بشر بنت البراء ، فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، إن لقيت بشراً فأقرئه منى السلام ، فقال لها : يغفر الله لك يا أم بشر ، نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ونسمة الكافر فى سجين ؟ قال : بلى ، قالت : فهو ذاك » .

أما الحديث الذى صححه أبو محمد عبد الحق ، فهو ما رواه ابن عبد البر فى الاستذكار والتمهيد من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

« ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » .

ولعل السؤال الملح فيما نحن بصدده هو :

ما نوع هذه الحياة التى يحياها الأنبياء والشهداء ، وغيرهم ؟

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال نورد ما ذكره ابن القيم بهذا الصدد فى كتابه النفيس « الروح » :

«إن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان ؛ والأرواح تبع لها ، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح ، وإن أضمرت النفوس خلافه ، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها ، فكما تبعت الأرواح الأبدان فى أحكام الدنيا ، فتألمت بألمها ، والتذت براحتها ، وكانت هى التى باشرت أسباب النعيم والعذاب – تبعت الأبدان الأرواح فى أحكام دار البرزخ فى نعيمها وعذابها ، والأرواح حينئذ هى التى تباشر العذاب والنعيم ، فالأبدان [1] ظاهرة والأرواح خفية ، والأبدان كالقبور لها ، والأرواح هناك [2] ظاهرة والأبدان خفية فى قبورها ، فتجرى أحكام البرزخ على الأرواح ، فتسرى إلى أبدانها نعيماً وعذاباً ، كما تجرى أحكام الدنيا على الأبدان ، فتسرى إلى أرواحها نعيماً وعذاباً ، فأحط بهذا الموضوع علماً واعرفه كما ينبغى ، يزل عنك كل إشكال يورد عليك

(١) فى دار الدنيا .

(٢) فى دار البرزخ .

من داخل وخارج . وقد أرانا الله سبحانه ، بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك نموذجاً فى الدنيا من حال النائم ، فإن ما ينعم به أو يعذب فى نومه . يجرى على روحه أصلا ، والبدن تبع له : وقد يقوى حتى يؤثر فى البدن تأثيراً مشاهداً ، فيرى النائم أنه فى نومه ضرب ، فيصبح وآثار الضرب فى جسمه ، ويرى أنه قد أكل وشرب ، فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب فى فيه ، ويذهب عنه الجوع والظمأ ، وأعجب من ذلك أنك ترى النائم ، يقوم من نومه ، ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان ، وهو نائم لا شعور له بشىء من ذلك . لأن الحكم لما جرى على الروح ، استعانت بالبدن من خارجه ، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس ، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ، ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع ، فهكذا فى البرزخ ، بل أعظم . فإن تجرد الروح هناك أكمل وأقوى ، وهى متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع ، فإذا كان يوم حشر الأجساد ، وقيام الناس من قبورهم صار الحكم بالنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً ، ومتى أعطيت هذا الوضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه ، وضيقه وسعته وضمه وكونه حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وأن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه . . وقلة علمه . . . » .

أما بعد : فإنا نختم هذا البحث بكلمة يقولها حجة الإسلام الإمام

الغزالى ، عن تجربة شخصية يؤيد ما هو واضح من بدهيات الجو الإسلامى فى هذا الموضوع ، وهى كلمة تعبر عن رأى جميع الصوفية وجميع فلاسفة الإشراق :

«ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى إنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد.

ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق» .

الصلاة

أتى رسول الله ﷺ ، على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر وكلما رضخت عادت كما كانت . لا يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

...أتى دور الفروض الدينية ، وبدأت هذه الفروض بالصلاة .

والصلاة هى الركن الثانى فى الإسلام ، إن منزلتها ومنزلة ما عداها ، إنما يأتى بعد الإيمان بالله وبرسوله .

أتى دور الفروض الدينية ، وإن لم تكن قد فرضت بعد : ذلك أن الرحلة المباركة ترسم الماضى والحاضر والمستقبل ، إنها ترسم الحياة

الإسلامية ، فى جميع أدوارها الزمنية ، فى جانب العقيدة والأخلاق منها .

والصلاة فى الوضع الإسلامى عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، مثلها فى حياة المسلم كمثل نهر جار غمر [1] على باب أحدكم – على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – يغتسل منه كل يوم خمس مرات .

وعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال : قال رسول الله ، ﷺ :

« أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله » [2] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » [3] .

وستتحدث إن شاء الله عن الصلاة فيما بعد فنبين أهميتها الكبرى فى الوضع الإسلامى ، ولكنا قبل أن نفرغ إلى الزكاة نقول : إن الرسول ﷺ رأى يوماً فيما يراه النائم تمثيلا لتارك الصلاة يشبه التمثيل الذى

---

(١) الغمر هو الكثير الماء

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط ، وقال: لا بأس بإسناده إن شاء الله .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير . وقال: تفرد به الحسين بن الحكم الحبرى .

تقدم . يقول صلوات الله وسلامه عليه :

. . . فانطلقت فررت على ملك وأمامه آدمى ، وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى ، فيقع دماغه جانباً ، وتقع الصخرة جانباً .

ولما سأل ﷺ عن ذلك ، قيل له :

« أولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ، ويصلون الصلاة لغير مواقيتها فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار » .

وقبل أن نفرغ إلى الزكاة أيضاً نذكر ما يلى :

يقول الإمام القشيرى :

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رضى الله عنه يقول :

إن نبينا عليه السلام أتى للأمة بالمعراج على التحقيق ، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج .

وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاث منازل ، من الحرم إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى ، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى .

فكذلك لنا الصلاة ثلاث منازل : القيام ، ثم الركوع ، ثم السجود ، وهو نهاية القربة .

قال الله تعالى :

(واسجد واقترب) [1].

---

(١) سورة العلق : آية ١٩ .

الزكاة

وتأتى الزكاة بعد الصلاة فى ترتيب منهج الحياة الذى نحن بصدده .

لقد أتى رسول الله ﷺ على قوم على أقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع ، والزقوم ، ورضف جهنم .

فقال : ما هؤلاء ؟

فقال جبريل عليه السلام : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم وما ظلمهم الله ، وما ربك بظلام للعبيد .

والزكاة هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، ولقد حارب عليها سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ، وذلك أنه حينما انتقل الرسول ﷺ . إلى الرفيق الأعلى ، قال بعض القبائل من الأعراب :

إنا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وسنستمر نؤدى الصلاة ، ونصوم رمضان ، ونحج ، أما الزكاة فإنها مادة ومال ولا شأن للدين بذلك وأعلنوا الامتناع عن أدائها .

وكان هذا أول تفكير منحرف من بعض المسلمين فى الإسلام يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو المادة ، أو بالتعبير الحديث يهدف إلى فصل الدين عن الدولة ، فقال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : سأحاربكم .

إنه يحارب من أراد فصل الدين عن الدولة . فقيل له : كيف تحارب من يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؟

فكانت إجابته :

أن الشهادتين لهما حقوق إذا امتنع إنسان عن أدائها فإنه يحارب عليها .

وأن من حقوق الشهادتين أداء الزكاة .

روى الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى هريرة نضر الله وجهه قال :

« لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر رضى الله عنه ، وكفر من كفر من العرب – بسبب عدم إخراجهم للزكاة ، وامتناعهم عن تأديتها – فقال عمر ، رضى الله عنه : كيف نقاتل الناس ، وقد قال رسول الله ، ﷺ :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه وحسابه على الله » .

فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ؛ والله لو منعونى عناقاً [1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها .

قال عمر رضى الله عنه : « فو الله ما هو إلا أن شرح الله صدر

---

(١) أى شاة صغيرة . وفى رواية أخرى (عقالا) والمقصود أى شىء ولو كان يسيراً .

أبي بكر رضى الله عنه فعرفت أنه الحق » .

من هذا الحديث الشريف نعلم أن مانع الزكاة بهذا الوضع ، وعلى هذه الصورة كافر ، وأنه يحارب حتى يؤديها وإلا قتل .

وقد حارب سيدنا أبو بكر رضى الله عنه ما نعى الزكاة ، لأنه رأى أن الامتناع عن الزكاة – إنكاراً لها – ارتداد عن الإسلام ، ولم ينفعهم – فيما رأى سيدنا أبو بكر ، وفيما رأى الصحابة معه – صلاة أو صيام ، أو غير ذلك من الشعائر الإسلامية ، ذلك أن الزكاة : ركن من أركان الإسلام ، والامتناع عن أدائها ، إنما هو هدم لركن من أركان الدين .

إنها الركن الثالث ، يدفعها من تجب عليه لمستحقيها ، « ليحيي بها نفوساً ، ويشبع بها بطوناً ، ويمسح بها دموعاً ، ويزيل بها آلاماً ، وينال بها ثواباً وأجراً من الله تعالى » .

وما من شك فى أن الزكاة رابطة بين الإنسان وربه ، إنها رابطة رضوان من الله وأجر وثواب ، ونماء وبركة .

ورابطة شكر من الإنسان لله تعالى ، على ما أنعم به وتفضل وأحسن وأكرم .

وهى من ناحية أخرى : رابطة بين الإنسان وأفراد المجتمع الذى يعيش فيه .

رابطة مودة وتعاطف وتراحم .

وقد أنذر الله تعالى الممتنع عن أدائها وتوعده بعذاب أليم .

أما الذى يؤديها فقد ذكره الله سبحانه وتعالى ، فيمن رضى الله عنهم ، وأجزل لهم ثوابه ، يقول سبحانه :

(فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذى كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى)[1] .

ويقول سبحانه :

(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير)[2] .

الصدقة

وبجوار الزكاة يحسن الحديث عن الصدقة وسواء كنا بصدد الزكاة ، أو بصدد الصدقة فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)[3]

---

(١) سورة الليل : الآيات ١٤ – ٢١ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٨٠ .
(٣) سورة البقرة : آية ٢٦١ .

ويقول سبحانه :

(فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغنى عنه ماله إذا تردى) [٢] .

ويقول سبحانه :

(وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) .

لقد رأى رسول الله ، ﷺ ، صورة الممتنعين على الزكاة ورأى أيضاً - فيما يراه النائم - صورة آكلى الربا ، ورأينا أن نتحدث عن الربا ، بعد الحديث عن الزكاة والصدقة مباشرة لما بينهما من فرق ، هو الفرق بين الخير والشر .

الربا

فقد رأى رسول الله ﷺ : نهراً من الدم يفور كفوران المراجل ، وعلى حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالع قذفوه بها فتقع فى فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر . فلما سأل رسول الله ﷺ عنهم قيل له : أولئك الذين أكلوا الربا ، فهم يعذبون بها ، حتى يصيروا إلى النار .

أما فى رحلة الإسراء والمعراج فإنه ﷺ مر بقوم بطونهم أمثال

---

(١) سورة الليل : الآيات ٥ - ١١ .

البيوت ، كلما نهض أحدهم خر على الأرض ، فلما سأل عنهم جبريل ، قال : هم أكلة الربا .

وللصورة البشعة للربا آذن الله سبحانه المتعاملين به بالحرب ، لقد آذن الله بالحرب صنفين من الناس :

١ - أكلة الربا

٢ - المعادون لأولياء الله .

أعلن الحرب على أكلة الربا فى القرآن الكريم :

(فأْذنوا بحرب من الله ورسوله)[1] .

وأعلن الحرب على من عادى الأولياء ، فى الحديث القدسى الذى رواه الإمام البخارى :

« من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » .

ورمز المرابى فى ليلة الإسراء ، رجل يسبح فى بحر من الدم ، ويلقى فى فمه قطع من النار يبتلعها : إنه يسبح فى الدماء التى امتصها ممن تعامل معهم وما أخذ من قطع النقود تلتهب ناراً تصير فى جوفه تحترق وتشتعل فيها .

ولا ريب أن الطرف المعارض للصدقة وللزكاة ، الطرف الذى يبغضه الله ، ويبغض المتعاملين به ، هو الربا .

ولقد حارب الإسلام الربا حرباً لا هوادة فيها ، حاربه لأنه مبدأ

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٩ .

ليس بإنسانى ، واستعمل فى محاربته من التعبير أقساه .

لقد حاربه فى جملته وتفصيله ، يقول الله تعالى :

(الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس)[1] .

والمتعاملون بالربا :

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

والله سبحانه وتعالى يقول :

(يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم)[2] .

ولكنه سبحانه وتعالى يفتح للمتعاملين بالربا أبواب توبته :

يقول تعالى :

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون)[3] .

ومما لا شك فيه أن الربا – على أية صورة من صوره – يتعارض مع الروح الدينية العامة التى هى الرحمة والتعاون .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٥

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٦

(٣) سورة البقرة : الآيتان ٢٧٨ و ٢٧٩ .

ونذكر فى نهاية الحديث عن الصدقة والربا والزكاة :

(وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)[1] .

وفى هذه الآية الكريمة يشير الله سبحانه إلى أن الشح والبخل وعدم الإنفاق فى سبيل الله إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة .

ويقول سبحانه :

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير)[2] .

وفى هذه الآية الكريمة يرشد الله سبحانه وتعالى إلى أن أصحاب الأموال قد استخلفهم الله سبحانه وتعالى فى ماله هو ، وأنهم مجرد مستخلفين ، وهذا يشير إلى أنهم إذا أساءوا فإنه يرفع استخلافهم على المال فيصبحوا ولا مال لهم .

ويقول سبحانه :

(من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ، وله أجر كريم)[3] .

إنه سبحانه وتعالى يضاعفه له فى الحياة الدنيا .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٥

(٢) سورة الحديد : آية ٧ .

(٣) سورة الحديد : آية ١١ .

ثم يجزل له الأجر :

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم)[1] .

الثبات على العقيدة

نقلتنا هذه الرحلة المباركة من التوبة إلى الجهاد مباشرة ، ثم كانت الصلاة والزكاة ممثلتين لبقية فروض العبادة .

وقد تحدثت الرحلة عن أنواع من الآثام باعتبارها ممثلة لما عداها وأن الله سبحانه يحاسب عليها وعلى غيرها من المعاصى إذا لم يبادر الإنسان بالتوبة الخالصة النصوح .

وقبل أن نبدأ فى ذكر هذه الآثام نتحدث عن قوة الإيمان وثبات المؤمنين ، والتمسك بالعقيدة ، حتى ولو أدى ذلك إلى الموت على أية كيفية .

إن الشهداء من أجل عقيدتهم لهم رائحة زكية تستمر حتى يوم القيامة ، وإن الرائحة الزكية التى تنبعث من الأماكن التى استشهدوا فيها والأماكن التى وقفوا فيها ، لتدل دلالة واضحة على أنهم فى رياض

---

(١) سورة الحديد : آية ١٢.

الجنة محاطين بروح من نسماته ومن رحمته .

لقد شم رسول الله ، ﷺ ، فى مسراه رائحة طيبة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها .

أما قصتهم فإننا نرويها على نحو غير السابق فى بعض تفاصيله وإن كان الجوهر واحداً .

لقد شم رسول الله ، ﷺ ، الرائحة الطيبة وسأل عنها جبريل فأخبره أنها رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها بينما كانت تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط من يدها .

فقالت : بسم الله تعس فرعون .

فقالت ابنة فرعون : أو لك رب غير أبى ؟

قالت : نعم .

قالت : أفأخبر بذلك أبى ؟

قالت : نعم .

فأخبرته : فدعاها فقال : أو لك رب غيرى ؟

قالت : نعم ربى وربك الله ، وكان للمرأة زوج وثلاثة أولاد ، أصغرهم رضيع ، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعها عن دينهما فأبيا .

فقال : إنى قاتلكما .

قالت : إحسانا منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا فى مكان واحد فتدفننا جميعاً .

فقال : ذلك لك بما لك علينا من الحق . .

فأمر ببقرة من نحاس فأحميت بزيت ثم أمر بهم فألقوا فيها واحدا بعد واحد حتى بلغ الرضيع . وكانت أمه تحمله ولشفقتها عليه تلكأت وكادت ترجع لموافقة فرعون .

فقال : يا أمه قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق .

فكان هذا الرضيع ممن تكلموا فى المهد خرقاً للعادة .

وإن لنا فى تاريخنا الإسلامى مواقف مشهورة مشهودة ، وقف فيها الصحابة رضوان الله عليهم مواقف من لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

ففى غزوة بدر استشار رسول الله ، ﷺ ، الصحابة فى الجهاد ، فقام المقداد بن عمرو ، رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فقال :

« يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد [1] لجالدنا معك دونه حتى تبلغه » .

---

(١) مكان باليمن .

وقام سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وكان من الأنصار فسأل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم عما إذا كان يعنى الأنصار باستشارته هذه فلما أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالإيجاب قال :

«لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، ومانكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ فى الحرب ، صدقٌ عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله» .

الرموز الخاصة باللسان

يقول العرب : «مقتل الرجل بين فكيه» .

ومن المعروف أنه مما يكب الناس على وجوههم فى جهنم إنما هى حصائد ألسنتهم . .

ولقد حذر الله سبحانه فى كثير من آى القرآن من آثام اللسان ، وحذر رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، فى كثير من الأحاديث النبوية من آثام اللسان .

يقول الله سبحانه وتعالى :

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا

أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون)[1] .

ويصور القرآن مثل المغتاب فى صورة بالغة البشاعة .

يقول تعالى :

(ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم)[2] .

فقد مثل الله سبحانه الاغتياب :

بأكل لحم الإنسان .

وجعل المأكول أخاً .

وجعل الأخ ميتاً .

وعقب على ذلك بقوله : (فكرهتموه) .

ولقد نالت آثام اللسان فى رحلة الإسراء قدراً موفوراً من التشبيه والتمثيل :

١ – لقد أتى رسول الله ، ﷺ ، على قوم تقرض ألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء . !

قال : ما هذا ياجبريل ؟

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٠ .

(٢) سورة الحجرات : آية ١٢ .

قال : هؤلاء خطباء الفتنة ، خطباء أمتك يقولون بما لا يفعلون .

٢ - وأتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع !

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

٣ - ورأى قوماً أظفارهم من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم .

فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم .

٤ - ورأى قوماً تقطع لحومهم من جنوبهم ، وتطعم لهم كرهاً .

فقال : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء مثل الغمّازين واللمّازين .

٥ - وفى إحدى رؤاه ﷺ ، رأى ملكاً وبين يديه آدمى وبيد الملك كلّوب من حديد : فيضعه فى شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه ثم يأخذ فى الأيسر فيلتئم الأيمن .

فلما سأل جبريل عنه قال له :

أولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ، ليفرقوا بينهم ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار .

آثام الجوارح

والجريمة الكبرى ، الجريمة الأساسية إنما هى الإلحاد .

يقول سبحانه :

(قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟

الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، فحبطت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً) [1] .

وقد وضع الله سبحانه وتعالى للملحدين تمثيلا فى القرآن الكريم بين فيه العلل والأسباب وأوضح فيه النتائج وأسفر عن الصورة صارخة ، واضحة ، لا يحجبها قناع .

يقول سبحانه :

(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) [2] .

---

(١) سورة الكهف : الآيات ١٠٣ - ١٠٦ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٧٥ - ١٧٦ .

وجرائم الجوارح ذكر الله سبحانه وتعالى منها كثيراً فى قوله تعالى :

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون .

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده . وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)[1] .

ولقد ذكرت الرحلة المباركة بعض الرموز التى تمثل آثام الجوارح ، ذكرت البعض ولم تذكر الكل ، وذلك أنها ما كانت بصدد الإحصاء والاستقصاء .

١ — من ذلك مثلا أن رسول الله ، ﷺ ، أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ، ولحم نىء فى قدر خبيث فجعلوا يأكلون من النىء ويدعون النضيج .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى

---

(١) سورة الأنعام : الآيات ١٥١ — ١٥٣ .

امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تصبح » .

والله سبحانه وتعالى يقول :

(الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) [1]

٢ – ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

ورسول الله ﷺ ، يقول :

« لا إيمان لمن لا أمانة له » .

٣ – وفى حديث أبى سعيد أنه رأى أخونة عليها لحم طيب ليس عليها أحد ، وأخرى عليها لحم نتن عليها ناس يأكلون .

قال جبريل : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام .

٤ – وأنه مر بقوم مشافرهم كالإبل يلتقمون حجراً فيخرج من أسفلهم .

---

(١) سورة النور : آية ٢ .

وأن جبريل قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً

أما جزاء أصحاب الآثام إذا لم يتوبوا ، فهو دخولهم فى جهنم حيث العذاب ألواناً .

وعن جهنم نقول : إن رسول الله ﷺ أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم تقول :

رب آتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى ، وسعيرى وحميمى ، وضريعى وغساقى ، وعذابى ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فآتنى بما وعدتنى .

قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

الوصول إلى بيت المقدس

ووصل رسول الله ، ﷺ إلى بيت المقدس .

وفى رواية أنس عند مسلم :

ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر ، وإناء من لبن فاخترت اللبن .

فقال جبريل : اخترت الفطرة ، أى اخترت اللبن الذى عليه بنيت الخلقة [1].

وقال النووى : المراد بالفطرة هنا الإسلام والاستقامة .

والخمر فى التعبير الإسلامى هى أم الخبائث ، وأخبر الله سبحانه وتعالى أنها رجس من عمل الشيطان ، وقد لعن الله شاربها وبائعها وحاملها والمحمولة إليه ولعن عاصرها والمتجر فيها على أى وضع كان .

والبيرة من أنواع الخمور « وكل ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

وفى رواية ابن مسعود نحوه – أى نحو رواية أنس السابقة – ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين ما بين قائم وراكع وساجد . ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا ، فأخذ بيدى جبريل فقدمنى فصليت بهم .

وفى رواية أبى أمامة عند الطبرانى : ثم أقيمت الصلاة فتدافعوا حتى قدموا محمداً ﷺ .

عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى

ثم عرج ﷺ إلى السموات العلا فتجاوزها سماء سماء حتى تجاوز الكون كله وكان عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى : الجنة التى يأوى إليها المتقون من عباد الله ، وشم رسول الله ﷺ ، ريحاً طيبة باردة كريح

(١) انظر كتاب الأنوار المحمدية ليوسف النبهانى

المسك وسمع صوتاً .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول : رب آتنى ما وعدتنى به فقد كثرت غرفى وإستبرقى ، وحريرى ، وسندسى ، وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى ، وفضتى ، وذهبى ، وأكوابى ، وصحافى ، وأباريقى ، ومراكبى ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فآتنى ما وعدتنى !

قال : لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى ، وعمل صالحاً ، ولم يشرك بى شيئاً ، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى فقد أعطيته ، ومن أقرضنى جازيته ومن توكل على كفيته ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد قد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين .

قالت : قد رضيت .

إذ يغشى السدرة ما يغشى

فى إبهام : « ما يغشى » من التفخيم مالا يخفى :

فكأن الغاشى أمر لا يحيط به نطاق البيان ، ولا تسعه أردان الأذهان .

وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة ، وجواز أن يكون للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد .

وورد فى بعض الأخبار تعيين هذا الغاشى فعن الحسن :

غشيها نور رب العزة جل شأنه فاستنارت .

ونحوه ما روى عن أبى هريرة :

يغشاها نور الخلاق سبحانه (عن الألوسى) .

المشاهدة

يقول الله تعالى :

(ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) .

ويقول الحديث الشريف : ودنا الجبار رب العزة فتدلى فكان منه قاب قوسين أو أدنى .

ويقول الإمام ابن حجر :

وقد أخرج الأموى فى مغازيه ومن طريق البيهقى عن محمد بن عمرو ، وعن أبى سلمة عن ابن عباس فى قوله تعالى :

(ولقد رآه نزلة أخرى) .

قال : دنا منه ربه .

يقول الإمام ابن حجر : وهذا سند حسن وهو شاهد قوى لرواية شريك ، ويكون المعنى على غرار « ينزل ربنا » .

بعد ذلك نسأل :

هل رأى محمد ﷺ ربه ؟

هل شاهد الجلال والجمال ؟

نقول أولا : إن الإمام الصاوى ذكر بمناسبة تفسير قوله تعالى :

(ومامنا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) .

إن هذه الآيات حكاية عن اعتراف الملائكة بالعبودية رداً على عبدتهم ، والمعنى : ليس منا أحد إلا له مقام معلوم فى المعرفة ، والعبادة ، وامتثال ما يأمرنا الله تعالى به .

قال ابن عباس : ما فى السموات موضع شبر إلا وعليه ملك يصلى ويسبح . ثم يقول :

قيل إن هذه الآيات الثلاث نزلت ورسول الله ﷺ ، عند سدرة المنتهى ، فتأخر جبريل فقال النبى ﷺ :

أهنا تفارقنى ؟

فقال جبريل : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى هذا .

وأنزل الله تعالى حكاية عن الملائكة :

(وما منا إلا له مقام معلوم) .

ووقف جبريل واقترب محمد ﷺ .

ويذكر الإمام الصاوى فى قوله تعالى :

(ما كذب الفؤاد ما رأى) أن محمداً ﷺ ، رأى ربه مرتين : مرة فى مبادئ البعثة ، ومرة فى ليلة الإسراء ، «واختلف فى تلك الرؤية ،

فقيل رآه بعينه [1] حقيقة ، وهو قول جمهور الصحابة ، والتابعين ، منهم ابن عباس ، وأنس بن مالك والحسن وغيرهم ،وعليه قول العارف البرعى :

وإن قابلت لفظة : « لن ترانى »
بـ « ما كذب الفؤاد » فهمت معنى
فموسى خر مغشياً عليه
وأحمد لم يكن ليزيغ ذهنا

وقيل لم يره بعينه ، وهو قول عائشة رضى الله عنها .

والصحيح الأول ، لأن المثبت مقدم على النافى ، أو لأن عائشة لم يبلغها حديث الرؤية لكونها كانت حديثة السن » .

لقد ذهب غير واحد فى قوله تعالى :

(ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

إلى أنه فى أمر العروج إلى الجناب الأقدس ودنوه سبحانه منه ﷺ ، ورؤيته عليه السلام ، إياه جل وعلا ، فالضمائر فى (دنا وتدلى)

---

(١) سيأتى فيما بعد (رآه على الوجه اللائق) وهذا يعنى أن الرؤية ثابتة أما الكيفية فإنها غير معروفة ومن المؤكد أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يشعر شعوراً واضحاً يقينياً أنه فى حضرة الله تعالى : المحيط ، الذى ليس كمثله شىء ، اللطيف ، النور .

ولعل هذا الشعور هو المقصود بالمشاهدة وعلى ذلك فلا معنى للنقاش فى هذا الموضوع ونحن هنا إنما روينا ما قيل وبالله التوفيق .

و (كان) و (أوحى) وكذا الضمير المنصوب فى (رآه) لله عز وجل .

ويشهد لهذا مافى حديث أنس عن البخارى من طريق شريك بن عبد الله :

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة..(الحديث) فإنه ظاهر فيما ذكر.

واستدل بذلك مثبتو الرؤية كحبر الأمة ابن عباس رضى الله عنهما وغيره .

والظاهر أن ابن عباس لم يقل بالرؤية إلا عن سماعها ، وقد أخرج عند أحمد أنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

« رأيت ربى » [1].

ذكره الشيخ محمد الصالحى الشاملى تلميذ الحافظ السيوطى فى الآيات البينات وصححه .

ثم إن القائلين بالرؤية اختلفوا ، فمنهم من قال : إنه عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه بعينه ، وروى ذلك ابن مردويه عن ابن عباس ، وهو مروى أيضاً عن ابن مسعود ، وأبى هريرة ، وأحمد ابن حنبل .

---

(١) انظر فى كل ذلك تفسير الإمام الالوسى .

ومنهم من قال : رآه عز وجل بقلبه ، وروى ذلك عن أبي ذر .
يقول العلامة الطيبى فيما يرويه الإمام الألوسى :

« ولا يخفى على كل ذى لب إباء مقام (فأوحى) الحمل على أن جبريل أوحى إلى عبد الله (ما أوحى) إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتساويين مما يضيق عنه بساط الوهم ولا يطيقه نطاق الفهم ، وكلمة (ثم) على هذا للتراخى الرتبى ، والفرق بين الوحيين : أن أحدهما وحى بواسطة وتعليم ، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم .

وعن جعفر الصادق عليه الرضا أنه قال : لما قرب الحبيب غاية القرب نالته غاية الهيبة فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف لأنه لا تتحمل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف ، وذلك قوله تعالى :
(فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

أى كان ما كان ، وجرى ما جرى ، قال الحبيب للحبيب ما يقول الحبيب لحبيبه ، وتلطف به تلطف الحبيب بحبيبه ، وأسر إليه ما يسر الحبيب إلى حبيبه فأخفيا ولم يطلعا على سرهما أحداً . وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا
سر أرق من النسيم إذا سرى

ومعظم الصوفية على هذا : فيقولون بدنو الله عز وجل من النبي ﷺ ، ودنوه سبحانه على الوجه اللائق .

وكذا يقولون بالرؤية كذلك .

وقال بعضهم فى قوله تعالى :

(ما زاغ البصر وما طغى) ما زاغ بصر النبي ﷺ . وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ، ولا إلى الجحيم وزفراتها ، بل كان شاخصاً إلى الحق (وما طغى) عن الصراط المستقيم .

وقال أبو حفص السهروردى : ما زاغ البصر حيث لم يتخلف عن البصيرة ولم يتقاصر (وما طغى) لم يسبق البصيرة ويتعدى مقامه .

ونحن نقول كما يقول الإمام الألوسى فى صراحة لا لبس فيها :

« أنا أقول برؤيته ﷺ ربه سبحانه ، وبدنوه منه سبحانه على الوجه اللائق ، ذهبت فيما اقتضاه ظاهر النظم الجليل إلى ما قاله صاحب الكشف . أم ذهبت فيه إلى ما قاله الطيبي فتأمل والله تعالى الموفق » .

إن كلمة « على الوجه اللائق » تفض كل نزاع ، والله أعلم .

خاتمة

في بعض آثار الإسراء والمعراج

ومن الثمار التى جنتها الأمة الإسلامية ، والتى كانت من مقاصد إذاعة النبأ :

انفصال ضعاف النفوس ، والشاكين والمترددين : انفصال كل هؤلاء عن الأمة الإسلامية الناشئة .

لقد كفر – عند سماع النبأ – من كفر بعد إسلامه وارتد من ارتد بعد إيمانه ، وما كان هؤلاء ، لو بقوا ، إلا عاملا من عوامل الضعف أكثر من أن يكونوا عاملا من عوامل القوة . إن هؤلاء المكيين الذين آمنوا وصبروا على الحوادث القاسية ، على التعذيب وعلى الآلام ، وعلى الفتنة فى جميع مظاهرها ، إن هؤلاء المكيين الذين صبروا ، وصابروا وتخلصت أنفسهم من جميع النزعات المادية ، ومن جميع الأهواء ، فأصبحت خالصة لله وحده ، إن هؤلاء المكيين الذين كان فى تقدير الله سبحانه وتعالى : أن تقوم عليهم الدولة فى نشأتها ، والذين من أجل ذلك يجب أن يكونوا مهيئين لأن يصمدوا لكل ما يمكن أن يعترضهم من عقبات ، نقول : إن هؤلاء المكيين يجب أن يصفوا تصفية تامة كاملة . ومن وسائل هذه التصفية : إذاعة نبأ الإسراء والمعراج !

لينتكس من ينتكس ، وليبقَ من يبقَ عن بصيرة وبينة ، وعن إيمان لا يتزعزع مهما كانت الحوادث ، إيمان يصدق الرسول صلوات الله

وسلامه عليه ، فى كل ما يأتى به ، يصدقه بمجرد إنبائه .

والمثل الأعلى فى ذلك : إنما هو سيدنا أبو بكر حينما يعلن فى غير تردد ولا فتور :

« لئن كان قاله : فلقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فو الله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه » .

هذا الإيمان المطلق بالرسول هو الذى جعله صلوات الله عليه وسلامه ، يطلق على أبى بكر رضوان الله عليه : « الصديق » .

و « الصديقية » مرتبة من مراتب الإيمان ، لا ينالها إلا من جاهد نفسه جهاداً تخطى به إيمان العامة ، وسما فى إيمانه درجة ، إلى أن أصبح قائماً بالله متجهاً إليه ، عاملا على مرضاته فى جميع ما يأتى وما يدع .

والأمة الإسلامية بأكملها ، مطلوب منها ، بالنسبة إلى أخبار رسول الله ، صلوات الله عليه ، أن تكون على غرار الصديق ، رضوان الله عليه ، تلقى بقيادها إلى إخباره وتسلم نفسها إلى إنبائه مصدقة تصديقاً كاملا : تصديقاً يحملها على العمل بما جاء به ، وعلى اتباع كل ما جاء به ، وعلى الانتهاء عن كل ما نهى عنه ، تصديقاً إيجابياً يحقق للأمة الإسلامية المجد الذى ترجوه ، تصديقاً ينفى عن وجودها هؤلاء الذين انحرفوا مع المنحرفين واستجابوا لنداء أعداء الإسلام فأخذوا يشككون الناس فى أقوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فى

أحاديثه وفى سننه ، زاعمين أنهم من المجددين وما هم فى الواقع إلا أبواق من أبواق المستشرقين والمبشرين .

إن هذه الأقلام التى تشكك فى السنة وفى الأحاديث النبوية ليست إلا أقلاماً مقلدة لا تحمل طابع الأصالة ، ولا طابع التجديد ، وإنما تحمل طابع التقليد ، وطابع الشك والتردد الذى يتنافى مع الإيمان ، ويتنافى مع الصديقية .

أما ثمرة الإسراء والمعراج ، وأما هدية الإسراء والمعراج . . .

وأما أعظم المنح الإلهية فى الإسراء والمعراج ، أعظمها على الإطلاق !

أما النعمة العظمى والتجلى الإلهى الأكبر فى الإسراء والمعراج فإنه : الصلاة .

ولا يتأتى لنا – عجزاً وقصوراً – أن نتحدث عن الحمد ، وعن الشكر ، على هذه النعمة التى أنعم الله بها على الأمة الإسلامية فى هذه الليلة المباركة .

فالصلاة هى الصلة به سبحانه ، وهى الكيفية ، وهى الطريقة ، وهى الوسيلة ، وهى اللحظات الجليلة التى تتم فيها الصلة وتتحقق .

إنها فترة مناجاة ، فترة انقطاع كامل ، ويجب أن يكون كاملا ، عن عالم المادة ، وعن عالم الشهوات ، عالم الفتنة ، لتخلص النفس إلى المنعم حتى تنعم فى رحابه بسعادة الصلة به والقرب منه !

ومن أقام الصلاة فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، إن إقامة الصلاة أو إقامة الدين إنما هى إقامة الصلة بالله ، وتحقيق ذلك هو المثل الأعلى ، والغاية العظمى ، والسعادة الكاملة التى يجرى وراءها المؤمنون ليحققوا بها معراجهم نحو الله تعالى . وما من شك فى أن الصلاة يقيمها الإنسان كما أراد الله ورسوله ، من أنجح الوسائل فى القرب إلى الله ، إنها البراق الذى يجتاز به المؤمن ، فى سرعة سريعة ، طبقات البعد عن الله سبحانه ، ليتقرب إليه تعالى فينعم فى رحابه .

هذه وغيرها من عبر الإسراء والمعراج ، ومن توجيهات الله فيهما : هى التى يجب أن ننتبه إليها وأن نأخذ فى تأملها والانسجام معها .

إن الله سبحانه وتعالى : أخذ يتحدث فى سورة النجم عن آفاق عليا ، وعن أجواء إلهية جديدة ، وعن مشارف من السمو ترتد عنها الأمانىَ حسرى ذاهلة ، لقد أخذ سبحانه يتحدث عن سدرة المنتهى ، وعن جنة المأوى ، وعن آياته سبحانه الكبرى ، لقد أخذ سبحانه ، يتحدث عن :

رتب تسقط الأمانى حسرى　　　دونها ما وراءهن وراء

ثم . . . ثم هوى بنا سبحانه ، فى عنف عنيف ، هوى بنا فى سرعة سريعة دون سابق إنذار ، ليفتح أعيننا على مهازل ومهاوٍ من الشرك يضل فيها هؤلاء الذين هم كالأنعام أو أضل سبيلا ، فقال سبحانه ، بعد أن ذكر هذه التجليات الإلهية :

(أفرأيتم اللات والعزى ؟
ومناة الثالثة الأخرى)

لقد أرانا سبحانه ، بهذه الكلمات : البشرية المسكينة فى ضلالها الدينى ، وانحرافها الذهنى .

إن كل من يترك هذه الآفاق العليا ويتجاوزها ليتحدث عن أن الرسول ﷺ ، أسرى به بجسمه وروحه ، أو بروحه فقط ، أو أسرى به يقظة أو مناما . إنما هو بذلك ينحدر بنفسه مختاراً ، من التجلى الإلهى ، ليهوى بها منتكساً إلى جو اللات والعزى ، وينحدر بها منتكساً من جو سدرة المنتهى إلى الجو المادى ، ومن مجالات النور السماوى المتلألئ إلى ظلمة الجدل ، وزيغ المماراة فى الدين .

فلننصرف عنه ، ولنتركه وما اختار ، مبتعدين عن الجدل مع الممارين ، ولندع الله قائلين :

(ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا . وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب) .

فهرس

رقم الإيداع	٢٠٠٤/١٦٥٠١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6711-2

١/٢٠٠٤/٤٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



يُعَدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامى والتصوف فى العصر الحديث ، ولقب بأبى التصوف فى العصر الراهن ، فقد أثرى المكتبة العربية بأمهات الكتب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالى وكتابه « المنقذ من الضلال » ، و « دلائل النبوة » ، و « القرآن فى شهر القرآن » إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة فى عرض أى موضوع أو مسألة تتعلق بأمور الدين ، وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارات ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية فى شتى بقاع العالم ، وسيبقى هذا العالم وتراثه فى قلوبنا على مر العصور .

٠١/٩٥٩-٠٠٠

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

دار المعارف